أكثر من عمر

الرواية الفائزة بالجائزة الأولى
فى مسابقة الرواية لعام ٢٠٠١م

رواية

عبد الفتاح مرسى

المؤلف : عبد الفتاح مرسى
الكتاب : أكثر من عمر
الناشر : نادى القصة
لوحة الغلاف للفنان: فاروق حسنى
الطبعة الأولى : ٢٠٠٢ م
رقم الإيداع : ٢٠٠٢/١٨٣٢٠

نادى القصة
٦٨ شارع قصر العينى القاهرة ت : ٧٩٤١٩٢٩



هيئة المكتب

إهداء

إلى روح أنور جعفر
الذى دفعنى لأشترك بهذه الرواية ولم ينتظر
.. فوزها بالمركز الأول.

ع.م

١

□ إذا ما أوشك الليل المدلهم أن ينقض علينا، ليفصل بين التحامنا الحياتى، بادرت وأشعلت «ضده» شمعة ليتوقف عند الباب.

الليل الذى مر بنا، كان شديد العتمة، وكان قارص البرودة.. وكان يزمجر كوحش هائج، ومع ذلك لم يكن أمام إصرارنا على مقاومته بقادر على اقتحام خلوتنا الحياتية، ظل رابضا هناك، خارج بابنا ينتظر.. ينتظر سقوطنا.. ينظر إلينا بعيونه الكهفية.. ويرنو إلى الشمعة التى تذوب بين أيادينا، ربما راودته نفسه المظلمة، وقال لنفسه «متى انتهت الشمعة، سأدلهم المكان»، لكنه لم يكن يعلم بأننا فى انتظار الفجر..

وأننا نأمل أن الفجر.. قبل أن تلفظ شمعتنا أنفاسها الأخيرة سيأتى.. ليملأ الدنيا بالضياء.

* * *

توفرت له العزيمة، وشعر بأن فى إمكانه اغتصاب الصدق من بين نوازعه وضعفه كإنسان، يتجزأ على رغبات عديدة، ود أن يقول كل شىء - يقوله بحرية مطلقة - لا تنقصه الشجاعة، ولا تنقصه البراعة فى إبتداع الكلمات المعبرة.. كل ما ينقصه، هى الظروف المواتية.

* * *

كان الخواجة الجريجي بندليس بابا إستاثيفو.. أسطى عنبر الفوتوليتو، فى شركة الحلويات بباكوس، يحاول ترجمة أبيات من الشعر، يقرأها باليونانى، ويحاول تفسيرها بالعربى، وكان يمسك بالكتيب الصغير الذى يضم قصائد لشاعر يونانى.. عشق الإسكندرية، وحواريها، وشبابها، وشاباتها.. ذاب عشقا فى المكان.. ولعن الزمان كثيرا، الزمان الذى لم يكن «مواتيا».

فى ذلك الوقت، كنت على أعتاب الشباب، أعمل مع الخواجة بندليس، مساعداً - وكان الخواجة بندليس يدللنى كثيراً.. بعد أن أثبت له بأننى أعرف الكثير، ولا أفصح، أمام كومندا المصنع (تودرى)، لقد تعلمت ما يفعله الخواجة بندليس فى ألواح الزنك، كان ما يشغل بال الخواجة الجريجى ألاعيب الخواجة تودرى، أن يكتسب منه أحدهم الخبرة، فيستغنى عن خدماته.. وظل فترة طويلة، يصرفنى بعيدا عما يفعله، وعندما اطمأن لى، شد على يدى، ورفعنى إلى درجة أعلى من كونى مساعداً له!

وفى وقت الراحة، وحتى وهو منهمك فى القص واللصق وتحميض الأفلام وتثبيت الصور على ألواح الزنك.. تحت حرارة الإشعاعات المضاعفة للكربون.. كان يرفع شعره الذى يغطى جبهته ويتحدث، يتحدث معى. ومع نفسه، ويستخدم اللغة العربية بالطريقة المحببة التى ترسم وتصور الكلمة من الداخل والخارج.

«أبناء الحضارات القديمة لهم طعم خاص».

واليونانيون لهم اتصالهم القديم بالإسكندرية، وطريقتهم الكوميدية فى التعبير باللغة العربية صارت جزءاً لا يتجزأ من تراث

المدينة التى تولى وجهها إلى البحر!

* * *

بندليس أتى إلى مصر أثناء الحرب العالمية الثانية، واستقر بالإسكندرية، وسكن الإبراهيمية.. وانتهى به المطاف أسطى قسم الفوتوليتو بالمطبعة.. «الفوتوليتو - يعنى التصوير».

كان قد أمضى شبابه حتى سن السادسة والعشرين فى اليونان واعتنق الاشتراكية - التى جرت عليه المصائب - فغادر اليونان وطاف بعدة بلاد حتى استقر بالإسكندرية، تزوج من يونانية، لم ينجب منها، فى أول فرصة بعد قيام ثورة يوليو وتفكك الجاليات الأجنبية ورحيلهم عن الإسكندرية، سافرت «كاتيا» إلى اليونان لزيارة أهلها ولم تعد، وظل بندليس مقيما وحده فى شقة الإبراهيمية أمام سينما «لاجتيه» ومن أحاديثه مع نفسه، ومعى، كانت له مشاكله، وهى مشاكل عويصة - يسميها - مشاكل أيدلوجية - وأنا الذى وصلت فى فصول الدراسة الأولية للصف الرابع، وتم اختيارى مع المتفوقين للالتحاق بمدرسة المعارف الابتدائية - درست فيها عامين - ثم حدثت ظروف عائلية.. دعت إلى أن أعمل فى المصنع.. تحت يد الخواجة بندليس..

على أمل استكمال تعليمى.. فيما بعد .. لم أكن أفهم، معنى المشاكل الأيدلوجية، واعتقدت أنها، زوجته كاثيا، التى مالت إلى شخص يونانى آخر، وتبعته إلى اليونان، عندما قرر العودة إلى بلده وتركت زوجها وحيدا، فيما بعد سأتعلم الكثير على يد الخواجة بندليس وسأعرف معنى الكوميونة، والكومنستى والأيدلوجيا التى

جرّت عليه «المصائب» فى اليونان، حتى بات مطلوبا للثأر منه.

وكان للخواجا بندليس رأى لا يفصح به - عن الحكام العسكريين - ولكن بعد صدور القرارات الاشتراكية فى بداية الستينيات على يد عسكريين مصر، صار يتحدث كثيرا عن «ناصر»، ويعلق له صورة، وهو فى ملابسه المدنية، وبمرور الوقت، كان بندليس لا يخفى عنى شيئا من حياته الزاخرة بالأحداث، حتى مدام صافى الألبانية التى عشقها.. وهى المسلمة.. التى لها أهلها فى تركيا.. وصف لى كيف ضعفت العلاقة بينهما وانتهت، عندما دخل فى روعها إحساس بأن بندليس يقبلها بشدة وقسوة، عندما تحتدم الخلافات الحدودية بين تركيا واليونان، وظنت أنه يكون شديد التوتر إذا ما اشتد الصراع بين سكان قبرص من الأتراك، والقبارصة من أصل يونانى!

وبندليس كان يتكلم اللغة العربية بذلك النطق اليونانى المميز، مستخدما كثيرا من اصطلاحات اللهجة الإسكندرانية، مع الكنيات والسباب، والشخر والمخر المحلى!!

وكان الأسطوات الكبار فى المصنع يكلمونه ببعض الكلمات والعبارات الجريجية، أثناء التعامل معه، فكان يرد عليهم بالعربى «المكسر» والذى ظل مكسرا لسنوات طوال.

« معلوم.. عادل، خبيبى، ضرورى أتكلم عربى.. أنا فى الدنيا أعيش فى مصر، وأنت إذا دخلت جوه..»

هنا يصنع إشارات من يبتلع شيئا، يقصد إذا أمكن أن أشاهد قلبه «أقول: تقصد يا خواجة إذا دخلت جوه قلبك».

« إيه.. إيه.. جوه القلب بتاع الأنا.. عادل، لازم تتكلم عربى، تحط

نفسك فى الضد.. إذا تكلمت جريجى.. أنا أخزن فى دماغى، أنت ولد عربى كويس.. وأنا طلعت روحى مع .. اسمه إيه «جابر» خوخوم».

أعود به إلى الموضوع الذى يقصده، فهو معى يتشعب، وأنا أتكفل بجمعه!

– قصدك يا مسيو باندليس، تقول «نفسك ومنى عينك تعيش عمرك كله فى مصر.. هل تقصد تكون مصرى..؟

هنا يصمت قليلاً ويوازن العبارة، وحاجباه الثقيلان يرتفعان وينخفضان، وقد يفرك ذقنه المربعة، ويتقبل الجزء الأول من كلامى ويعارض الجزء الثانى، يرفع أكتافه حتى أذنيه، ثم يهز رأسه هزات خفيفة، مستغرقا فى تكوين جملة عربية كاملة يرد بها.

«ضرورى كل واحد يخب.. اسمه إيه.. الوطن بتاعه».

وأجمع ما يتناثر من باندليس فأجد أنه عاشق لأشياء كثيرة، عاشق لأصحابه فى المقهى الذى ينفق عليه معظم أماسيه بالإبراهيمية، وعاشق لعدلات التى تأتى إلى شقته يوما من كل أسبوع لتنظفها، «بنت جدعة متفانية»... وعاشق لمصر.. وعشقه الأعظم كان لليونان.

أما الذين يكرههم.. فهم كثيرون.. يبدأ بالاستعمار.. والحكومات العميلة، وينتهى بالمنافقين فى المصنع من أسطوات آخر زمن والذين يسميهم «شيوخ المنسر»!.

وفى رأيه أن اليونان، ليست الحجارة والجبال، والشواطىء والموانىء.. أنه يعتز باليونان – الحضارة – «مثل مصر، عقل الدنيا،

ويرى أن هذا كله قد تقيده النظم الديكتاتورية».

واعتاد أن يلقى بالمصطلحات المعقدة، ثم يقوم بتفسيرها على حلقات، حتى جعلنى أتعرف على أسرار الفاشية، والنازية، وفرانكو، وستالين، ثم أدرك أننى أضع ستالين مع غيره من الدكتاتوريين، فعاد وأخرجه من بينهم، وأخذ يحكى لى الظروف الخاصة التى مرت بها الثورة البلشفية ضد المنشفيك، ثم ضد الحصار، وكيف أن ظروف الحرب العالمية تداخلت فى تحديد ملامح وقوة ستالين.

وباندليس كان يرى أن ذلك ضروريا، ويعزى فضل هزيمة ألمانيا لجهود السوفييت وتضحياتهم الجسيمة.

* * *

وإذا ما كنت أطرق عامى التاسع عشر.. كنت ملما بالكثير من الأفكار الاشتراكية.. إذا ما سمعت من يتحدث عنها من الرفاق المصريين، كنت أغمض عينى وأسمع صوت الخواجة باندليس.. يشق طريقه مباشرة إلى الجوهر.. بدون لف.. أو دوران، تتطلبه حالة الاستعراض الثقافية التى تؤكد وجود الفوارق، بينما المثقف، من المفروض أنه يعمل فى الخفاء على إزالتها..!!

كنت فى ذلك الوقت قد ارتبطت بالسيدة المطلقة «كوثر» التى تعمل فى عنبر تغليف البسكويت، إذ اعتدت أن أذهب إليها لتعطينى بعض المنتج للاستخدام الشخصى فى إفطارنا، «وكلمة فى حدوتة» وجدت أمامى من ترحب بى على غير العادة، وفى شركة يزيد عدد السيدات فيها والفتيات عن عدد الذكور، ينقلب الحال، إذ يكون التنافس قائما بين اثنتين من أجل ذكر.

وهو ما حدث، إذ وجدتنى نوال المنياوية.. أطيل الوقوف مع كوثر أنفوشى - حتى نبهتنى وأخبرتنى بأنها مطلقة، ولا يزال طليقها يريد إعادتها إلى عصمته، وأنها - بتاعة قبارى - وليس لها صاحب - فكان سؤالى المحدد لنوال الصعيدية:

وأنت أليس لك صاحب؟

وعندما تباطأت فى الرد.. قدمت لها اسمه.. فكان ردها :

- القلب وما يريد ياسى عادل.

ثم صارحتنى بأن لها شقيقة تصغرها متعلمة، وتفك الخط، وإذا ما فكرت فى الزواج فلا أتورط مع «كوثر أنفوشى» المقطعة السمكة وذيلها.

وانتهى الصراع الثلاثى إلى توثيق عرى «المحبة» بينى وبين كوثر أنفوشى، والتى كنت إذا تغيبت عن الذهاب إليها، ترسل لى المراسيل، وكانت كوثر مثيرة، ومشيتها فضيحة، فإن كل جزء من جسمها يهتز، حتى وهى تتكلم، كانت تتكلم بأجزاء كثيرة من جسمها، وعندما اختليت بها من أجل قبلة سريعة فى منحنى مملوء بعلب الكرتون وورق التغليف، تعلقت بى، وأسقطتنى على كومة من الورق والمخلفات، وجردتنى من الملابس سريعا - هى التى كانت تجردنى - ولم تفكر أننا يمكن أن نضبط معا، وتكون فضيحة لنا، فالحب مشاع فى المصنع، لكن الفعل معاقب عليه!

لقد حدث لى انفعال عكسى.. وتمكنت من الإفلات، ولما حكيت للخواجة بندليس ما حدث معى، وهو الذى يحكى لى كل ما يحدث له فى حياته، تأملنى طويلا، وسحق عقب سيجارته فى المطفأة ولم يعلق.

بعد فترة سألنى :

- يا عادل أهى المرة الأولى؟

- أنا بوسبت بنات..

- أهى المرة الأولى التى..

وصفق بيديه.. أمام وجهى.. فقلت له:

- نعم.. لم يحدث أن لامس جسمى جسم امرأة عارية.

ضحك، بندليس وانهمك فى العمل.. وقبل أن ينتهى يوم العمل قال:

- حاول معها .. أنت الذى يجب أن يحاول، وليس هى، لا تترك المبادرة فى يدها، وإلا سببت لنفسك مشكلة.. عند الزواج.

وعندما حدثته، عن خشيتى من أن تكون كوثر أنفوشى - ترسم على الزواج منى - أكد لى بأن «المرأة» لا ترسم مطلقا على زواج.. المرأة التى ترسم على زواج تتعفف.. وتدعى الطهارة.. تفعل عكس ما فعلت الست كوثر أنفوشى.

وعندما وجدنى مترددا.. قال :

- يا خيبتك التقيلة يا عادل..

قالها بالعربى، وبدون لكنة جريجية.. كأول عبارة فصيحة أسمعها من الخواجة بندليس....

٢

□ كانت عيناها تبرقان بذلك البريق الوهاج.. نصفه رغبة فى الوصال. ونصفه خوف من هذا الليل الرابض على الأعتاب..

امتلأت بالجرأة، وذهبت إلى كوثر أنفوشى.. ألاطفها، وجدتها، مأساة تتحرك على قدمين.

تزوجت زيجتين.. وأنجبت طفلا جميلا، تحتفظ بصورته فى حقيبة يدها، منذ أن غرق أمامها على شاطىء البحر، وهى ووالده فى لهو تحت الشمسية، بعدها انقلب زوجها عليها.. وسامها العذاب.

قدمت لى عديدا من الاعتذارات عما حدث، وضحكت، فظهرت بداخل فمها السنة ذات التلبيسة الذهب، وهى تحدثنى عن الشيطان الذى يركبها ويعجن أفكارها بالأوهام، ترى نفسها بأنها ستمضى باقى عمرها فى «المورستان» - ولما صرنا أصدقاء جداً، صارحتنى برغبتها الشديدة فى إقتناء مسدس، انزعجت، ولكنها أصرت بأنه لن يهدأ لها بال، حتى تقتنى مسدسا تضعه فى حقيبة يدها، فتشعر بالاطمئنان، وبالتدريج، علمت أن الذى يهددها، ليس زوجها الذى فقد ابنه واعتبرها السبب فى موته، فانتهت حياتها معه. ولكن الذى يهددها دائما - هو «قبارى» - الذى وجدت فى أحضانه السلوى، عندما ألقاها زوجها خارج مسكنه، وألقى خلفها ملابسها، وصارت

رؤيته لها تعيد إليه حالة الصرع والتشنج، صورت لى قبارى.. فتوة من فتوات البارات، الذى يعود فى مشهد قضت عليه الحكومة وتخطاه الزمن، ذلك الفتوة الذى يعيش على عرق الستات، يفتش حقيبتها، ويستولى على نقودها، قبل أن يهرسها تحت بدنه. قبارى، عمله الأصلى «صياد»، كان يصيد فى البحر، وصار صيادا فى البر.. وفى اعتقاده.. أنه كله سمك.. يؤكل.

ولم أكن أدرى، كيف يتم شراء مسدس؟ وفى ظنى أن ذلك يحتاج إلى ترخيص، وتقديم أسباب معقولة، لكن «الدميرى الصعيدى» الذى يعمل على ماكينة القص، إذا ما غلفت الموضوع وقدمته له، سهل لى المسألة، وبين لى أن شراء مسدس من «البحيرة» مع مائة طلقة، كمن يشترى تذكرة علاج جنسية من العطار، ما عليك إلا أن تميل على التاجر، وتصف له حالتك، وتكون مستعدا لأن تدفع المطلوب، وهنا يتم إحضار التذكرة الداوودية!

- تقدر يا دميرى.. عمى يريد شراء مسدس، كم يكون ثمنه؟
- ثلاثون جنيها بالكثير.
- مع الطلقات.
- الرصاصة بثلاثة قروش.
- مسدس صالح للاستعمال.
- مسدس ألمانى.. إنجليزى.. أى نوع ترغب.
- متى يمكن إحضار المسدس؟
- يوم الأحد إجازة، أسافر وأشتريه، بشرط يتحمل عمك مصاريف السفر، وجنيهان فوق الحساب على أساس أنهما عرقى!

– سأسافر معك.. إن وافق عمى على دفع المبلغ.

– سأحصل على جنيهين فوق البيعة.

– سأكلم عمى.. عن الاتفاق.

* * *

وتقابلت مع الست كوثر أنفوشى. وحكيت لها ما حدث، فإذا بها تفتح حقيبة يدها وتخرج منها خمسة وثلاثين جنيها – وتقدم النقود لى «كان مهر العروسة الغالية أربعون جنيها لا غير» ووجدت نفسى أتأمل المسألة، هل هو الخوف من قبارى.. الذى يجعلها تدفع هذا المبلغ الكبير لإقتناء مسدس، لكى تبث الاطمئنان فى قلبها، كما أبلغتنى، أم أنها تريده لشىء آخر...؟

« ما الذى يقدمه المسدس إلا الموت؟.»

ووجدت نفسى – بعد أن دسست النقود فى جيبى، ارتعد، وكنت أخشى أن أتعرض لعملية نصب وتحايل يقوم بها الدميرى – الذى سبق وسجن مرتين – ويدعى بأن سجنه بسبب طبعه الحامى.

لكن طبعه الذى لمسناه منه فى المصنع لم يكن حاميا، كان باردا.. ويلتف على الأبدان ويشلها عن الحركة.

وانتويت أن أسافر معه، ولا أقدم النقود إلا لصاحب البضاعة، أما الجنيهان اللذان يطلبهما فوق البيعة، فإنه يستحقهما، إذا ما عدنا بالمسدس والطلقات..!

* * *

كان عبد الناصر قد أمم القنال.. وكانت بورسعيد قد تعرضت لحالة غزو سريعة من الجو والبحر والبر.. ثلاث دول تعتدى على

مصر.. اثنتان منهم.. يمثلان قوة العالم الاستعمارية فى المائة عام الماضية.. لكن حرب بورسعيد.. أو كما يطلق عليها عالميا، حرب السويس، كانت الحد الفاصل.. فى نزول أقوى دولتين استعماريتين فى العالم.. إلى الدرجة الثانية..

مفسحين الطريق للولايات المتحدة الأمريكية.. لتتسلم مسئولية فراغ العالم من الاستعمار القديم.

وكان عبد الناصر قد خرج من الأزمة.. بطلا قوميا ووطنيا، فتم لقاء تجار سوريا مع ضباط الثورة، وأخذ الحديث عن الوحدة العربية مساراً متعرجا.. انتهى بظهور معارضة يسارية فى سوريا ومصر.. والمعارضة اليسارية شملت، معظم المثقفين فى البلدين، فالأفكار اليسارية.. كانت لعبة المثقفين على أساس توصيلها إلى الطبقة العاملة فى البلدين، لكن الطبقة العاملة فى البلدين كانتا فى وادى الخرافة والجهل.. فتمت حملات اعتقال لقوى اليسار فى مصر.. كما ضاق الخناق على اليسار فى سوريا – دون صدور أى انفعال من الطبقة العاملة لا فى مصر.. ولا فى سوريا.

وكانت الرأسمالية العالمية قد وقفت فى الاتجاه المضاد لمبادىء يطلقها الضباط وهم يتنقلون فى سيارات الجيب العسكرية، والعدوان الثلاثى كان له أثره فى داخل مصر، إذ تبين أن شركات إنجليزية وفرنسية، وشركات يملكها يهود اضطربت، وإذا ما أسفر «العدوان» عن إفلات – عبد الناصر وزمرته من هزيمة محققة – هنا أصيب رواد النوادى الكبرى.. بالإحباط. فبدأت هجرة العملاء إلى الخارج مع أموالهم، التى تم تهريبها، وبدأت أولى حالات تمصير الشركات،

وغادر أولاد الخواجة مناحم مصر، تاركين شركات الحلويات والمطبعة فى أيدى - مديرين من أصل إيطالى أو يونانى.

لقد صار الخواجة تودرى.. هو المسئول عن المصنع الذى أعمل فيه، أما مصنع الحلويات الذى كنا نطبع له مغلفات منتجاته، فقد آل إلى الخواجة نتالى.. وهى مرحلة ، لم تستمر طويلا، حتى تم تأميم شركات ليفى وشركاه - تحت اسم الشركة المصرية للأغذية.. إيكا، واستمرت - المطبعة - كأحد الأقسام التابعة لشركة الحلويات ولم تعد الحركة بين الأقسام ميسرة.

قسم المطبعة يضم مائة وعشرين عاملا.. جميعهم من الذكور ومصنع الحلويات يضم ثلاثمائة سيدة وفتاة.. بالإضافة إلى مائة عامل وموظف.. والسيدات والفتيات.. يعملن فى شركة الحلويات.. كمحطة للزواج، ومعظم السيدات والفتيات اللاتى يعملن فى الشركة، كان عملهن.. بسبب وجود مشكلة فى حياتهن، اقتصادية بالدرجة الأولى، إذ لم يكن عمل السيدات.. هدف فى ذاته..

والسيدة أو الفتاة التى تتزوج، أول شىء تفعله، هو الانقطاع عن العمل.. وبما أن العمل كان وسيلة لا غاية، فإن هذه الوسيلة كانت تتحمل وتتساهل كثيرا.. حتى تعثر على صيدها، فكان الشائع.. أن الذى يعشق .. يعشق من عاملات الشركة.. أما الذى يتزوج.. فيتزوج من واحدة.. لم تعمل فى أية شركة!.

وعلى هذا الأساس، كانت نوال المنياوية.. تحاصرنى، وتوجهنى لزيارة بيتهم والتعرف على أختها «اعتماد».. على أساس أنها فتاة مضمونة، تم حبسها فى المنزل منذ كانت فى العاشرة، أو منذ نهد

صدرها.. وهنا يتم سحب الشاب، بمناسبة اجتماعية، المناسبة التى أتيحت لى، كانت زواج نوال من زميل لها، اشترط عليها أن تستمر فى العمل بعد الزواج، فكان مصطفى ورشة، بناء على ضغط من نوال - يؤكد على ضرورة أن ألبس «الحتة التى على الحبل» وأحضر حفل زفافه.. والغرض كان معروفا.. أن أشاهد اعتماد أخت العروس وأتعرف عليها.. ولم تكن نوال.. صارخة الجمال، كان وجهها وجه شاب بائس، لكن جسمها كان.. حالة أخرى.. ونوال أكدت لى بأن «اعتماد» جمعت بين جمال وجه أمها، وجسم نوال الأبيض المربرب!

* * *

فى ذلك الوقت، كانت وسائل المواصلات والاتصالات بطيئة والراديو - سيد الموقف - قطعة فاخرة من الأثاث، وربات البيوت يصنعن له الأثواب البيضاء المنقوشة والمشغولة شغل إبرة، له رف - فى المقهى - أو فى المنازل التى تقتنيه، الرف يكون فى مكان مرتفع، ولا يتعامل مع أزاره إلا الكبار الذين يفهمون فى تحريك محطاته، ويصبرون عليه إذا ما فتحوه حتى يتم تسخين لمباته العديدة ويبدأ فى النطق. وإذا ما تكلم الراديو، أو أطلق موسيقاه وأغانيه. وجب على الجميع السكوت والإنصات، وإذا ما تليت الأخبار.. استقبلها الناس بشغف.

فالأخبار.. هنا مجانية، ولن يدفع فيها أحد خمس مليمات.. أو عشرة مليمات.. ثمن صحيفة أو مجلة.

فى ذلك الصباح، كان الخواجة بندليس يقرأ فى صحيفته.. وقد أصيب بحالة عصبية.. ضاق.. وألقى بها على سطح المنضدة.. كما

ألقى بنظارته خلفها، وأخذ يزفر الهواء بصوت مسموع:

«المسلم إذا نفخ الهواء ضائقا عليه أن يستغفر الله العظيم» كان بندليس يقول «أووف.. يارابونا».

كان ذلك، تمهيدا - يحدث كثيرا - حتى يلقى بتعليق على شىء لا يعجبه من أخبار العالم، مشط شعره البنى السائح الذى ينسكب على جبهته المغضنة.. مشطه بأصابع يديه الطويلة.. وأصدر أصواتا من الحلق، ولم يطق أن يبقى جالساً فى عنبر التصوير، المعلق بالطابق العلوى فوق قسم الطبع، وله سلم حديد خارجى يفضى مباشرة إلى حوش المصنع.

كان قد كلفنى بتوفير ثلاثة ألواح من الزنك، أمسح ما عليهم من مطبوعات قديمة لإعادة استخدامها، وذلك يتم تحت دشاشة البلى، التى تتحرك حركة اهتزازية عنيفة، محدثة صوتا عاليا، وكنت فى حالة تشغيل الدشاشة.. أضع قطنا مبللا فى أذنى، يحجب الصوت أو يقلل أثره على طبلة الأذن، وكان الخواجة بندليس يتحدث ويشيح بيديه، والقطن فى أذنى، وكنت أنظر إليه كالأبله، وبندليس كف، واندفع وأوقف الدشاشة. وانفجر ضاحكا، وهو يمسك برأسى ويستخرج القطن من أذنى، كأن يريد أن يتحدث ، وكأن ما سيقوله أهم كثيرا من إنجاز عملنا، وكنت أود أن أنجز العمل، حتى أتفرغ لمراجعة دروسى.. وقد صرت تلميذا فى المدرسة المرقصية الثانوية المسائية، وكان ذهنى مشغولا بأشياء كثيرة مختلطة، صارت مشتركة بينى وبين فؤاد حسنين - الزميل الجديد الذى تآلف معى سريعا.

ومع ذلك، أظهرت أنى مهتم بما يقوله الخواجة بندليس الذى كان

يخشى – على نفسه – من أن يمر بحالة اغتراب جديدة، وعبد الناصر.. يعتقل قوى اليسار.. فى نهاية الخمسينيات.

وبندليس .. لأول مرة يعترف لى.. بأنه رفيق حميم لعدد من «الكومنست» بالإسكندرية، وإذا تم اعتقالهم، فإن ذلك يعنى.. أنهم كانوا مراقبين وسوف يأتى عليه الدور، وانتهى إلى أنه فى هذه الحالة، لابد وأن يسافر إلى اليونان..

وعاد واقترح اقتراحا غريبا.. أمام حملة الاعتقالات لابد وأن يختفى فى مكان آمن.. وأن لا يتواجد فى نفس الأماكن التى اعتادوا رؤيتهم فيها.

– الآن يا عادل.. جاء الدور عليك .. ستقوم بالعمل فى قسم الفوتوليتو.. لا تجعل أحد يقف معك ويلقط الصنعة، وأنا سأطلب إجازة.. قد أمطها إلى أسبوعين حتى تهدأ الأحوال.

وعلى ورقة أكبر قليلا من حجم ورقة البريد، كتب لى رقم تليفون، «إذا تعذر علىّ شىء فى إدارة العمل بالقسم.. مع جابر خوخوم، أنزل إلى سنترال باكوس واتصل به.. وهذا الرقم.. نصحنى بأن يكون أفضل، لو إننى حفظته فى ذاكرتى وتخلصت من الورقة»..

ومع أننى كنت مرتبكا.. إلا إن اشتراكى فى حالة بها أسرار وحملات اعتقال.. وهروب.. وتليفونات سرية.. وإدارة لقسم الفوتوليتو وحدى، كأول تجربة أتحمل فيها مسئولية العمل.

كل ذلك يجعلنى متحمسا للغاية، منبهرا إلى أقصى حد، بأن صار لى دورا.. وأنا الشاب الغر الصغير، جعلنى أشعر بأهميتى أمام نفسى..!

٣

☐ حوصرت بسهام العيون الساحرة – ذلك كان فى خيالى – بينما الواقع أن الذى يحاصرنى – هى الأجساد.. النهود والأفخاذ.. السيدات والفتيات فى اطمئنانهن الشديد بأن ليس ثمة خطورة لمن يجوس بينهن – تلك الملابس القصيرة التى أتت بها الستينيات ونهاية الخمسينيات، تمرد.. تحرر.. تقليد، لا أحد يدرى الوازع النفسى الذى كان يحرك الجميع.

والثورة تتحدث عن المساواة بين الرجل والمرأة.. وتتحدث عن المساواة بين الطبقات الاجتماعية التى عاشت فى مكان واحد فى حالة انفصال وتباعد.

الآن وقد أتت الطبقة الوسطى لتلحم بين الأعلى والأدنى.

وأيام شبابى مرهقة بالعمل، والمذاكرة، والرغبات، وتلك الأدوار المختلفة التى فرض على أن ألعبها دفعة واحدة.. وكلما بدرت منى محاولة للخروج من مخبأى، صوبت نحوى سهاما سامة، فأرتد مذعورا إلى كهفى غير المحصن، كنت أخشى إصابة مبكرة.. تصيبنى بعجز، فلا أستطيع مواصلة باقى مشاويرى.. هربت من كوثر أنفوشى بعد أن سلمتها المسدس، لم تسألنى عن باقى المبلغ – وكنت قد اشتريته بواسطة الدميرى.. بعشرين جنيه، صاحبه طلب

ثلاثين وساومته.. ومنحت الدميرى الجنيهين، مخصوم منها مصاريف يوم الأحد.. الطعام والشراب الذى غالى فيه على اعتبار أنه مجانا.. واجمالى النفقات.. مع شراء عشرين طلقة رصاص.. كانت أقل من خمسة وعشرين جنيها.

وعندما قدمت لكوثر المسدس.. فرحت به - وفتحت حقيبتها وسحبت ثلاث جنيهات ووضعتهم فى جيبى.. تمنعت قليلا. وأردت أن أقول لها بأن لها باقى حساب عندى.. ولكنى آثرت الصمت، كنت أريد أن أنقل لها طريقة تشغيله وإطلاقه، ورأت أن أصحبها إلى «مرسى مطروح».. هناك تطلقه فى الصحراء، وعلى البحر.. وتتعلم عليه كيف تصيب الهدف، وكان صاحبه قد جعلنى أطلق ثلاث رصاصات فى الغيطان، وجعلنى أقوم بتعميره بالذخيرة وتفريغه منها، وكيف أفتح الأمان قبل استخدامه، والمسألة لم تكن معقدة كما كنت أظن، وقد خرجت من هذه الصفقة - بثلاثة عشر جنيها تقريبا - أى ما يقرب من أجر شهرين من العمل فى المصنع.. فقد وافقت على قضاء يوم مع كوثر فى مرسى مطروح - ودفعت نصف المستحق للمدرسة الثانوية المسائية، سافرنا بالقطار.. كان بطيئا، ولكن وجودى مع كوثر كان يلهينى، من كان يشاهدنا - وخاصة مفتش القطار الذى كان يقتحم الديوان علينا بمعدلات ثابتة.. كل نصف ساعة تقريبا، كان يظن بأننى شقيقها الذى يصغرها. وكانت فى ملابسها السوداء محتشمة، وكنت طوال الوقت أفكر.. فى اليوم الذى حاولت فيه معى بجرأة، فأعجزتنى عن الفعل.

الآن.. أنا الذى أرغب فيها، وهى قد رفعتنى إلى مكانة الشاب

طاهر الذيل، الذى يصون نفسه للزواج.. لكن نصائح باندليس كانت تحدد اتجاهاتى.

وتذكرت كل ما كان يقوله لى الخواجة بندليس.

- أنت ولد.. فلا تتصرف تصرف البنات..

فى إشارات كثيرة، كنت أبدى رغبتى فيها، وفى أوقات كثيرة، كنا وحدنا، ومع ذلك كنت أجلس فى المقعد المقابل لها، والديوان مغلق علينا، والقطار يمشى قليلا، ويتوقف كثيرا..!

ولما سألتها «أين سننزل فى مرسى مطروح؟».

قالت : فى مرسى مطروح لوكاندات .. وأنا سبق ونزلت مرتين فى لوكاندة هناك.. على الله.. أجد الخواجة الذى يعرفنى.

قلت : خواجه..؟

قالت : صاحب اللوكاندة خواجه..

قلت : لكن الخواجات بيسيبو البلد.. إذا كان قد ترك اللوكاندة ماذا سيكون التصرف..؟

قالت : الذى معه مال.. لا ينضام.. مرسى مطروح مدينة جديدة سياحية.. وأنا وأنت سواح..!

من يرانا لا يمكن أن يظن بأننا نصلح كعشاق! أنا كنت جاد الملامح هزيل الجسم، وأقرأ فى كتب صحبتها معى - وهى كانت معظم الوقت تركن رأسها على يدها وتنام - ولم أكن أفهم شيئا مما أقرأه وأنا أتصور أننى فى رحلة شهر العسل، وأتصور مقدما.. كثيراً من المشاهد.. فألهث بالرغبة فى امرأة تزوجت وأنجبت وعادت بنت بنوت!

* * *

أرسلت إلىّ سهما مشتعل الرأس بالنار.. اخترق وثائقى فشب فيها الحريق، فقدت بياناتى التى لا يمكن تذكرها بسهولة، الابتعاد عن الإسكندرية، كل هذه المسافة، حررنى وحررها من قيود معنوية..

استحمت كوثر فى البحر، ترتدى مايوها ساخنا، لعبت وجرت وصرخت وألقت بنفسها على الرمال، وبداخل الأمواج، وكانت متوقدة فى كل شىء تفعله.. وكانت مثيرة بالفعل، وتتسم بالحذر.

واقترحت أن نعود آخر نهار الاثنين.

ولأنى أعمل مع بنდليس، فإن غيابى يمكن رتقه بسهولة، وكوثر لها دلالها على رئيس القسم - الأسطى عبد التواب - الذى يحاول بث رسالة الإخوان المسلمين بين نساء المصنع، بضرورة التمسك بالأخلاق الحميدة، وارتداء الأزياء المحتشمة لمحاربة بدع الثورة الملحدة، وكانت ترى فى عينيه شهواته الجياشة، يكبتها تحت كم هائل من الموانع.. والصيام .. والتغاضى عن البدع.. أمضت كثيرا من الوقت تتحدث عن عبد التواب، وزملاء الشركة، ولم تتحدث عن حياتها فى الأنفوشى، أطلقنا خمس عشرة طلقة رصاص فى الهواء، وعلى أهداف قريبة فلم نصيبها، ومع ذلك كانت سعيدة.

وبقى لنا خمس طلقات، لحمايتنا من أخطار العودة.

وجود المسدس معنا، كان يشعرنا بشعور غريب بالأمان.

وأثناء العودة .. تحدثنا عن نوال المنياوية، وأختها التى تبحث لها عن عريس.. وسألتنى إن كنت سأحضر زفافها.. وعندما هززت رأسى موافقا.

سألتنى فجأة :

- لو أنى لم أكن أكبرك بسبعة أعوام.. هل كنت تتزوجنى؟!

قلت لها : سيدنا محمد.. تزوج من ستنا خديجة وهى تكبره كثيرا.

قالت : لو كنت غنية مثل ستنا خديجة.. هل كنت تتزوجنى؟

قلت لها : أنا تزوجتك بالفعل.

عضت على شفتها السفلى، وقد رسمت على وجهها دهشة محببة وهزت رأسها عدة مرات بالرفض.. وقالت : أوعى تنسى..

فقلت لها : لن أنسى.. أنك أوصيتنى بألا أنسى!!

* * *

هاك صحيفة عبوديتى، إنى أتنازل عن كيانى من أجلك، من أجل بدنك الصاخب، من أجل تراثك الأنفوشى، خلطة من زخائر الخواجات وأبناء البلد - عالمك الذى يعيش فى منازل بنيت على الطريقة العثمانية.. ويتنفس هواء الغرب البارد، ويندمج مع كل ما هو وافد.. يا باب المغرب العربى والمشرق العربى.. هل يمكن أن تحررينى من أثر الهزيمة أمام الجسد؟.

والخواجة بندليس يبذل الجهد فى بناء كيانى الثقافى، تارة يجعل الإغريق هم الجدود، وتارة يجعل المصريين القدماء هم الجدود.

وأحاول أن ألفت نظره إلى الحضارة العربية - فيقول «الحضارة العربية معجزتها فى أنها أزالت تعقيد الحضارة الفارسية والبيزنطية.. «الحضارة العربية» قامت بحفظ التراث الإغريقى.. ليعبر على جسدها إلى أوروبا، يتحول إلى شمس تبهرهم بضيائها، ولكنهم

إذا ما خرجوا من كهوفهم واتجهوا شرقا، فرضوا على أهل الشرق الدخول فى الكهوف والحبس فى الخيام والأكواخ».

يقـول : حـضـارتنا يا عـادل، قليلة الأصل، ليـست مـعطاءة كحضارتكم، كل عين أمامهما إصبع، إذا اقتربت كثيرا، ستفقأ عينيك.!!

وما بين جسد كوثر أنفوشى، ومجادلات الخواجة بندليس، شعرت بأنهم باعونى فى سوق العصافير، هكذا وضعت فى قفص للزينة.. محرم علىّ أن أنطلق بعيدا..

* * *

ولما شاهدت اعتماد أخت نوال المنياوية، جعلونى أشاهدها بشكل رسـمى، وكـأنى جـئت لخطبـتـهـا، زينوها وأدخلوها علىّ تحت وقع نظراتهم المتسائلة، فشاهدت فتاة نحيفة لعبت السيدات على وجهها بالزواق البلدى، فجعلوا منه أشبه بامرأة صغيرة، أين زغب الفتيات الخفيف، تحت الشفاة الشقية؟.. أين ذلك الشعر الذى يسبق شعر الرأس ويمتد أمام الأذنين حتى يحيط بالخدود المتوردة؟

والبنت اختلجت، وبين يديها صينية عليها أكواب الشربات، وكادت تتعثر وتسقط، سارعت وقمت وحصلت منها على الصينية، فاكتشفت من تمايلها أنها تضع فى قدميها - شكربين - طول كعبه أكثر من عشر سنتيمترات، وأنها لم تعتد السير به، كاد كعبه الدقيق وهو ينغرس فى الأكلمة المفروشة على الحصير أن يجعلها تسقط .

ولما جلست أمامى ووجدتنى أرحب بها، تهيأت أختها الكبيرة أن تطلق زغرودة بإعلان خطبتى لها ، سارعت وقلت :

- أنتم تعرفون، نحن أصلا صعايدة، أنتم من المنيا، نحن من سوهاج، يعنى أغمق كثيرا، ضرورى من حضور الأهل والحصول على موافقاتهم، بدون موافقة الأهل على العروس، لن تتم خطبة، أرجوكم، التمهل فى هذه المسألة.

ولما وجدت على وجوههم الدهشة قلت :

- المودموزيل اعتدال صغيرة وجميلة وألف رجل يتمناها..

وكان هناك رجل لا أعرف هويته أخذ يتحدث، على أن مشورة شباب هذه الأيام من دماغهم، وما دمت أعمل وأقبض راتبا فلابد وأن....، سارعت وأوقفت تحليلاته، كنت مرتويا، أرض مشبعة بالماء، حتى تكاد تطبل!

كانت كوثر أنفوشى تحتوينى، وكنت قد وثقت علاقتى بفؤاد حسنين، وأدخلنى فى إحدى عمارات المندرة بالقرب من شاطىء البحر، وعرفنى بأفراد عائلته التى تتمظهر كما العائلات «الثرية»، وكنت قد شاهدت أخته سهير، وكانت تدخل لنا بالمشروبات والسندوتشات، وكان فؤاد يطمئن من ناحيتى، وأنا الذى أكبرها بخمسة أعوام، وهى التى تزحف نحو عامها السادس عشر، لم أكن أظن فى حالتها الساكنة الهادئة، أنها بهذه الجرأة حينما أسقطت بين يدى خطابا مطويا، تبثنى فيه اعجابها بى، وحددت لى مواعيد انصرافها من مدرستها، واقترحت لقاءات بيننا خارج المنزل، حتى نتكلم سويا، وتفضى لى ببعض الأشياء، كان أبى دائماً ما يردد - بأن الطبق الذى تأكل منه لا تتفل فيه - والصديق الذى يدخلك بيته لا تخنه، وإذا عشقت أعشق بعيداً عن الحارة التى تسكنها، حتى إذا

حدث ما يعكر الصفو.. فلا تضف على متاعبك، مكان سكنك وسكينتك.

ومزقت رسالة سهير المكتوبة بالقلم الرصاص، ولكنها كانت تسألنى بعينيها فى غفلة من شقيقها – متى نتقابل؟ فكنت أتغابى، ومع ذلك وجدت نفسى تلقائيا، أذهب وألتقى بها، تعمدت أن أجعل اللقاء يبدو وكأنه تم بالصدفة، فالمدرسة (الفنية) تجاور محطة ترام رشدى باشا، وإذا ما وقفت أو مررت على مزلقان الترام أثناء خروج التلميذات من المدرسة، من المؤكد أن أصادفها، شاهدتنى وهى بين مجموعة من زميلاتها، انسلخت عنهم جميعا واتجهت نحوى، توقعت أن تنادينى كما تنادى أخاها فؤاد – «أهلا أبيه» ولكنها ببساطة تتسم بالشقاوة قالت :

– أهلا عادل.. أنا سعيدة جدا أنك جئت.. كان لابد وأن تعطينى فكرة لأرتب وقت عودتى ، متأخرة، لكن ملحوقة، يمكن أن نرتب كل شىء فى هذا اللقاء.. ونتقابل بعد ذلك.

وإذا ما شاهدت الترام قادمة، قالت :

– باى عادل.. يمكن أن نتراسل فى السر.. اكتب لى وسأكتب لك ونتبادل الرسائل وأنت عندنا فى البيت..

واحتضنت حقيبتها على صدرها ولحقت بزميلاتها، كانت ترتدى ملابس «الفتوة» السماوية، وتضع الفاروقية على جانب رأسها، وكان جسمها أنثويا ومقعدتها ثقيلة، لكن النصف العلوى كان هضيما، ولعلى شاهدت أثر «الروج» على شفتيها.. كانت شفتاها وسطا بين الشفاة الإفريقية والقوقازية..

وكانت سـهير تجمع الكثير من الأحداث التى مرت بشمال الوادى حملة لويس الصليبية، ونفى المماليك إلى أبى قير، ووجود الجاريات الأجنبيات فى القصور القديمة، والأصل الرشيدى للأم، والأصل الراقودى للأب.

والبنت التى تبدو ساذجة ومطيعة فى بيجامة البنات البيتى، كانت شقية وعفريتة وهى تخاطبنى بكل ثقة ، وكأننا سبق وتقابلنا عدة مرات فى السر.. وأنا الذى كنت أطوى صفحة من القيم الأصيلة، وكأنى أرتكب ذنبا.. لا أدرى لماذا كنت أساير سهير المجنونة؟

والتى ترسم بمراهقتها خطوات علاقتنا التى وجدت نفسى أمضى فيها تحت شعار مرسوم من شفتيها اللتين كنت أشعر بدفئهما وعذريتهما فى كل لقاء، عيونها الشقية تحيلنى إلى تلك الشفاة، والسينما الأجنبية تعتنى بالقبلة.. والسينما العربية تقلدها، والفتاة فى نظرى ليست جسدا خالصا.. بل عيون سهتانة، وشفاة ممتلئة بها أثر - روج - يوضع خارج البيت، ولا يزال إذا ما تهيأت بأن تركب الترام حتى فيكتوريا، وتركب القطار من فيكتوريا.. إلى المندرة.

لقد صار مكمنى غير آمن من السهام المشتعلة، وأنا الذى اجتزت عامى العشرين بقليل.. مغموس فى مصنع كعامل تستنفد طاقته، كان على أن أرفع يدى فوق رأسى وأخرج من مكمنى مسلما للأسر والهزيمة، لكن روح الجنوبى بداخلى كانت تدعونى أن أقاوم.. شقاوة بنت إسكندرانية من شرق المدينة بعد أن هزمتنى كوثر الأنفوشية من غرب المدينة، والمقاومة، عادة ما توجد التبريرات التى تهز الثوابت.

من خسارة معركة وكسب أخرى.. من عبودية إلى تحرر.. من

حرب إلى صلح.. أحوال فرضت من أجل الرغبات الدفينة.. أحوال وضعت سيفها فى ظهرى، كشفت جزءاً من أيام شبابى، أسيرا للجسد المكتمل لغرب الإسكندرية.. ثم أسيرا للعيون الشقية والشفاة الإسكندرانية.. لشرق الإسكندرية، صار مكان العقل.. يخفق بالوجد.. وحفنة من تراب وطين ورمل وقطرات من ماء النهر.. وعدد لا يحصى من العيون السود والملونة.. وفى الحنايا.. كانت صورة أفق ينحنى. وقوس قزح ومرعى، وماشية، ومزارع، ومدخنة، وكتاب، وريشة كتابة، وبعض قصائد، مطالع، ومقاطع.. وعدد من النجوم تحيط بالقمر البدر.. وصوت الناى الشجى.. يمسك بروحى ويسوح بها بعيدا، لكننى سريعا ما اكتشفت بأنهن جميعا، يروننى عبدا – يقف بباهن – جسده من نحاس، وأغانيه مارشات عسكرية..

وكان ذلك ضد طبيعتى.

كفنان.. لم يمسك بيده أحد ليعبر عن ذاته!

٤

□ كنت قد تفتت إلى عدد لا يحصى من القطع، وقبل أن يؤذن لى بالالتئام، أخذت أتأمل ما بداخلى، اقتربت أكثر، كان بداخلى.. اضطراب العصر، فإذا بالعدوى تنتقل إلى، أتحول إلى دخان له رائحة البخور.. وبداخله همهمات المتصوفة، فى مرحلة الشباب.. منعطف إلى التدين الشديد، وقد ننعطف إلى عكس ذلك.. ولكن فى كل الأحوال، ينضبط المؤشر على المنطقة الوسطى.. التى تكون معتدلة، بين الحرارة الشديدة، والبرودة الشديدة، أنه المناخ العام، الذى لا يكون شاذا.. لكن كل ما طرق أيام شبابى، كان له فعل السحر فى نفسى، عاش فى وجدانى طويلا.. يقترب منى، وأتآلف معه، لا أتقدم من شىء وأندمج فيه إلا إذا وجدت من حركاته وسكناته نفس الرغبة فى الإنجاب، أن يكون لنا - خليفة - يتسم بالجمال والذكاء.. يتبنى حلمى الرائع.. غير محدد الملامح.

- أنت يا عادل تدعى بأنك وصلت إلى المدرسة المتوسطة.. لابد وأنك تعلمت فى الكتاب، عندنا فى اليونان مدارس حديثة، ومدارس الكنائس، المدرسة الحديثة المفروض أنها تفتح مخك وتحطك على بداية التفكير العلمى.. أنت كثيرا ما تخلط بين العقل والوجدان، هل هى طبيعة الشرق، لا تستطيع أن تتخلص منها.

قل لى يا عادل: فى أى كُتّاب تعلمت أن تفك الخط ؟

أسئلة الخواجة بندليس لها أكثر من وجه، وعندما لم أسارع بالرد، قال : يظهر أنك بكاش – ب – بن – ك – كاكاو.. ش – شاى. أنها مشروبات البكش، تأتى لأصحابها بالملايين، ولكنها لا تسمن ولا تغنى من جوع، بل تساهم فى المجاعات، كما الدخان .

– أظنك فاهم قصدى؟!

* * *

لظروف عائلية ميلودرامية، تركت المدرسة الابتدائية «القديمة» وعملت فى مصنع الحلويات بباكوس، كنت قد التحقت بمدرسة المعارف الابتدائية المواجهة لشارع العقصة الذى يضم الحمام والمطعم الخيرى – وباعة الأثاثات القديمة، ومرضت أمى بعد أن اجتزت امتحان الصف الأول، مرضت أمى مرضها العضال، الذى احتاج إلى نفقات باهظة بالنسبة لموظف بالصلاحية فى مكتب البريد، وكأن والدى قد أخطأ وخالف الأعراف عندما أقحم ابنه البكرى بالمدرسة الابتدائية، مستخدما – واسطة – أتيحت له بحكم عمله فى توصيل الرسائل المهمة لعلية القوم، وبعدها عجز عن ملاحقة مصاريف العلاج، ومصاريف المدرسة، وهى نفقات وضعت كحاجز لتقوم بعملية الإنتقاء والفرز لمن يستحقون مواصلة التعليم من فئات المجتمع، هؤلاء الذين سيصلون إلى البكالوريا، والتوجيهية للوصول إلى التعليم العالى فى الداخل أو الخارج.

والمنطقة التى كانت لنا، لا يتاح لها إلا التعليم الأولى، فك الخط وحفظ شىء من القرآن الكريم، مع بعض مسائل الحساب.

ولما اشتغلت بالمصنع، تصادف أن تخلص بندليس من صبيه (إستافرو) بأن أوجد له عملا فى ورشة بالمنشية - عندما أتقن إستافرَو عمل الزنكات وحده - ولعل الخواجة تودرى الذى ضبطنى عدة مرات أقرأ فى أغلفة الأطعمة، وأغلفة الملابس التى نأتى بها من منازلنا للعمل بها، ملفوفة فى أوراق الصحف، فى البداية نهرنى وهددنى بالطرد إذا ضبطنى أقرأ، وأنصرف عن العمل.. وبعدها طلبنى إلى مكتبه، واستفسر منى عن مدى إجادتى للقراءة والكتابة، ومعرفتى بالحروف الإنجليزية، ولما تبين موهبتى الطبيعية فى الرسم.. نقلنى للعمل مع الخواجة بندليس.

لم يقل لى بأن أحل محله يوما، كل ما قاله لى :

- فتح عينيك يا عادل، ألقط الصنعة دون أن يشعر بك الخواجة بندليس، سيكون لك مستقبل أفضل من أى موظف عنده شهادات عليا، فاهم يا عادل..؟

وهززت رأسى على أساس أنى فاهم.

والخواجة بندليس وقد تسلل إلى نفسى - أغلق الباب خلفه على المفاجآت، فقد حدد عملى فى قسم الفوتوليتو لكى يستفيد منى فى أحد المراحل لعمل الزنكات، أجهل ما بعدها، وما قبلها - وفيما يبدو، شعر بأن ذلك ضد مبادئه السيسيولوجية، مع أنه قدم تبريرات بأن التقنية فى العصر الحديث لا تتطلب بأن يصنع «الفرد» المنتج كاملا، وأمام صناعته، يقف معجبا - يتباهى بها كما يتباهى الفنان بعمله إذا ما حصل على فرخ ورق مطبوع وشاهد الزنكات الأربعة إذا ما توالى طبعها.. ماذا يخرج من فن..؟

صور بالألوان لنجمات السينما العالمية، وملكات الإغراء، مارلين مونرو، صوفيا لورين، أنيتا أكبرج، جينا لولا برجيدا، إستر ليامز، وكان يصنع الرتوش فى صورهن الملونة، حتى يأتى بصورة أجمل وأروع، تكون مطبوعة على غلاف العلبة التى تحوى الحلويات والشيكولاتة.

وصرت أتعامل مع بندليس على أنه فنان، وإذا ما حدث بيننا جسر من الود - وشعر فيما يخفيه عنى عمداً، بنوع من الذنب، صارحنى بلعبة أصحاب المال، أصحاب المصنع، أنهم يأتون بالخبرة بأى ثمن، ويعملون على نقلها إلى شخص آخر يقبل ثمنا أقل، ثم يشيعونها بين عدد ينافس لصالحهم ويتحكمون فيه.

- خبرتى يا عادل تأتيهم بألوف الجنيهات، أعرف فائدتى بالنسبة لهم، لذلك أتمسك بالأجر المناسب، الذى لا يحولنى إلى عامل عادى، كما أن احتفاظى بسر الصنعة، يجعلهم لا يطردوننى فجأة من المصنع، يجعلنى أنا الذى أحدد الوقت الذى أتركهم فيه، أنا أوروبى، لكنهم يضعوننى فى نهاية الستة.. خطوة واحدة وأصير كأبناء العرب، درجة ثانية، أنا مبسوط من جمال عبد الناصر، لأنه يريد أن يجعل أولاد العرب فى الدرجة الأولى، نفس الدرجة التى يشغلها الفرنساوية والإنجليز.. لذلك يحاربونه، للاحتفاظ بريشة التمايز على رءوسهم، مؤكد أنت فاهم؟!

فى الواقع كان يبذل معى جهدا، ويشك فى ذكائى أحيانا، يتمنى أن أصل إلى ما فى رأسه، وما فى رأسه، ظل بعض الوقت غامضا، لكن ما كنت أمخر فيه وأتصادم معه - كان يجعلنى دائما أتذكر

محاولات بندليس فى تفتيح مخى.. فجأة أقول فى نفسى :

«والله عندك حق يا خواجة بندليس.. أنت ابن لئيمة صحيح!».

فالذى حذرنى منه، بدأت ممارساته معى، ليس على يد اليهود الذين تركوا المصنع غارقا فى الديون وهربوا.. لكن على يد الذين اشتروه صوريا.. ومنهم الخواجة تودرى.

– إيه يا عادل، اتعلمت الصنعة؟

– لسه شوية.

– لسه شوية يعنى إيه؟ إحنا سيبينك على كيفك أوعى يكون بندليس ضحك عليك؟.

– تقدر تقول .. نصف الطريق.

– يعنى إذا بندليس غاب عن المصنع، تقدر تطلع الشغل وماكينات الطباعة لا تتعطل؟.

– الخواجة بندليس لا يزال يحتفظ لنفسه بالفنش!

– جابر بيقول إنه صار صديقا لك، ودائما يتكلم معك، وأنك بتدخل معه معمل التحميض، وبيأكد أنك اشتغلت فى جميع مراحل عمل الزنكات، والمسألة بسيطة.

– جابر يعمل فى القسم قبلى.. لكنه للآن لا يفهم السما من العمى.

– إنت عارف .. جابر جاهل، وبندليس اختاره غبى، وغلبان لأجل لا يلقط الصنعة.

– لذلك، لا تعتمد يا خواجة على جابر .. جابر يقوم بأعمال النظافة وأداء المشاوير خارج القسم، صدقنى أنا.. لا يزال بندليس

يحتفظ لنفسه بسر الصنعة، وامنحونى الوقت الكافى لأتعلم، لابد وأن يثق فىّ ثقة عمياء، حتى أقوم بعمل الزنكات عملية كاملة من الألف للياء.

نفث الخواجة تودرى دخان البايب وقال :

– عموما فتح عينيك كويس، دا حيكون كويس جداً لمستقبلك الفنى يا عادل.

وهززت له رأسى وقلت :

– حاضر ..

ولما عدت إلى العنبر، وجدت الخواجة بندليس يقف عند النافذة التى تطل على حوش المصنع، يشاهدنى وأنا أدخل مكتب الخواجة تودرى، وأخرج منه، جابر هو الذى كان قد أخطرنى همسا بأن «الخواجة تودرى يطلبنى ضرورى»، ثم أبلغ الخواجة بندليس – إلى أين أنا ذاهب – فأشاع فى نفسه القلق.

جابر يعمل فى بطء، حركته وغفلته الدائمة ونومه المستمر يجعل من يتعامل معه، يقول عنه – ثور الله فى برسيمه.. وبندليس يعتمد عليه فى نظافة القسم – وشراء ما يلزمه من طعام أو سجائر جولد فلك، وجابر إذا ذهب إلى البوابة ليطلب إذنا بالخروج إلى سوق باكوس، يحملونه بكثير من الطلبات التى يريدها العمال، فكل من يريد شىء يبلغ البواب، والذى بدوره ينتظر خروج جابر ويقوم بإعطائه النقود ، ولستة بالطلبات.

«إنت عارف يا عم بيومى أنا لا أقرأ.. فهمنى ما فيها».

يقوم عم بيومى حارس البوابة، بقراءة لائحة الطلبات، ويعتمد جابر على ذاكرته الباهتة، وهو فى كل مرة ينسى أشياء مطلوبة ويأتى بغيرها - واعتاد العمال أن يوفقوا أوضاعهم على ما يأتى به، ومع أن جابر ينام كثيرا، إذا ما لمست مقعدته أى كرسى نام على الفور، وأصدر غطيطا، ومع ذلك كان بندليس إذا تكلم معى فى شىء، يخشى أن يكون العامل جابر متناوما ويسمعه، لا يفعل أو يقول شيئا إلا إذا صرفه من التواجد بالقسم، والأسطى عبد الغفار يقول عن جابر: «ولد يتيم، لطمته الأيام، تجوز عليه الحسنة» فكان العمال يمنحونه بقايا طعامهم، ولكن الخواجة بندليس كان يرى أن ذلك يقضى على البقية الباقية من كرامته كإنسان، ويفضل أن يلقى ببقايا الطعام فى صفيحة القمامة، على أن يعطيها لجابر، وله فى ذلك حكمته، «أن جابر عامل فقير، والعمال جميعهم فقراء، وإذا كان بعضهم فقراء جداً فليس ذلك ترخيصا لهم بالتسول»، لكن لابد وأن يكون ذلك دافعا لهم على تبيان المتسبب فى حالتهم، وإذا ما ضاعف الناس العطف عليهم فهم بذلك، يساهمون فى وجود عدد من المتوسلين، وليس من المكافحين، فالإنسان بطبعه يميل إلى الراحة، وإلى كل شىء لا يسبب له تعبا أو شقاءً، وأن عملية الإحسان على الفقراء جداً، يجب أن تكون مشروطة بعمل ولو شكلى، عمل يطلب منه ويدفع عنه أجر أكبر من قيمته، لكن لا يدفع المال لمن لا يعمل إلا إدعاء المسكنة، هنا إفساد، وعمل بطال، وإن كان ذلك يرضى نفوس بعض المحسنين الذين يودون شراء الجنة بسعر - الأكازيون الإلهى - بما يعادل عشرة بالمائة من الثمن، فيلجأ البعض إلى نظام

المقاصة مع «رابونا»، يريدون من الملائكة عند الحساب ، عمل كشف بما أنفقوه إحسانا الحسنة بعشر أمثالها..

أندهش أن الخواجة بندليس يعرف شيئا من القرآن، يهز رأسه نفيا، وهو يقول :

– ليست العملية ربوية تجارية بحتة، أنهم يفسدون عاملا وله أعضاء كاملة، وحتى إذا كان له بعضها، يمكن استغلالها، وتنميتها كي يستشعر شيئا من عزة النفس.

يضرب التربيزة ويقول :

– ضرورى.. القضاء على ظاهرة التسول، كل إنسان ولو كان عاجزا يستطيع أن يقدم عملا.. انظر يا عادل ، الرسام الفقير أو الموسيقى الفقير، يعزف للناس، أو يرسم للناس بدون الاتفاق على أجر، والذى يستمتع.. يدفع ما يمكنه الاستغناء عنه.

هنا الناس اعتادت أن تتسول، بدون بذل أى مجهود، فى أى شيء..!!

* * *

عندما عدت إلى القسم ودخلت، لم يهتم بالالتفات نحوى، صرت أعرف من حركاته، إن كان غاضبا أو مبسوطا.

تأكدت أن جابر ليس متواجدا بالقسم وقلت له :

– الخواجة تودرى، طلبنى..

ارتاح إذ أبلغته بالحقيقة، فك تشنجه، وجلس هادئا، متعمداً أن لا يكون أمامى ، متلهفا على سماع ما دار بيننا، لكن البطء الذى كان يفتح به علبة السجائر.. والطريقة التى يشعل بها سيجارته، كان

بذلك يعبد الطريق لأن أتكلم بالتفصيل، آثرت أن ألخص ما دار بيننا في عبارة دالة.

– سألني إذا ما كنت أتقنت العمل، ويمكن الاعتماد عليّ في إدارة قسم الفوتوليتو.

التفت بندليس نحوي وتجمد.. يريد أن يسمع الإجابة التي تفوهت بها، أنه يعلم بأنني صرت أتقن كافة العمليات.

قلت : أبلغته بأنك لا تزال تحتفظ لنفسك بسر الصنعة.

قال : وبعدين.

قلت : وبس .

قال : الولد خوخوم.. جاسوس.

قلت : جزء كبير من المعلومات، يرجع إلى ذكاء تودري.

ظل يدخن، وبعدها، أنهى العمل في بعض الأفلام الملصقة على الزجاج المضيئ.. وإذا ما تحرك نحو النافذة، وقلب في لفافة من طعام جابر الذي يأتيه، بقايا من طعام الذي يخدم عليهم، ضحك.. ذلك جعلني ألتفت إليه ، غمغم :

– الإنسان هو ما يأكله.

وأخذ بندليس يقلب في هذه العبارة، فوجد أن جابر يأكل من يد المحسنين طعاما جيدا، قد يكون أفضل مما أتناوله أنا وهو، وعقب:

– ضروري ماركس، لم يكن أمامه جابر خوخوم عندما قال هذه المقولة، المقصود منها أن الذين يأكلون جيدا يفكرون جيدا، أما الذين لا يأكلون، فإنهم يصابون بالأمراض التي لا تساعدهم للوصول إلى القرار السليم.

وقال أيضا :

«توجد أشياء كثيرة فى مصر، إذا أخضعناها للتحليل قد تصيب الفلاسفة بالجنون».

ودب إصبعه فى صدغه.. مما جعل رأسه يميل على الكتف الآخر!

٥

□ مبتدئا بالخوف، ومتنقلا من خوف إلى خوف، كنت كثيرا ما أخاف من أشياء، عندما أنتهى منها، ولا أصاب بشىء، أعيد النظر فى حالتى، فأجد أن لا مبرر للخوف.

ولكن الخوف دائما له ما يبرره.. له بؤرته.

ولم أكن أدرى بأن المواطن الصالح.. هوالذى يخاف.. ويخاف جداً.. وأن من الخوف نوع عميق.. أنه النوع الذى يجعلك دائما تشعر بأن لا ظهر لك ولا ظهير.. نوع يأتى من الإحساس الشديد بالفقر وقلة الحيلة!!

* * *

كنت قد أصبت بصداقة فؤاد حسين، أول من عمل فى المصنع ويسكن الناحية الشرقية - المندرة - بالقرب من شاطىء البحر.. فى البيوت التى يشاهد سكانها حدائق قصر المنتزه الملكى، والذى صار جمهوريا، وقد تم تعيين فؤاد.. بواسطة أكثر أسطوات المصنع نفوذا وسطوة، أنه «الأسطى عبد الغفار»، حامل دبلوم صنايع مدارس محمد على، وهو الأسطى الوحيد بين جماعات الأسطوات الذى يحمل مؤهلا فى الطباعة، وإن كانت الطباعة قد تطورت من الحجر إلى ماكينات الأوفست.. فقد كان الأسطى عبدالغفار يشعر بالتمايز،

أنه الكومندا غير الرسمى، والذى يعتمد عليه الكومندا الرسمى - الخواجة تودرى.. شخصيا!

وفى مقابل تعيين «فؤاد حسين» أتيح لكل أسطى من الأربعة الآخرين أن يعين عاملا أو صبيا من طرفه، حتى لا يختل التوازن بينهم، توازن قوى دقيق ومرسوم بعناية، استقرت بعض المرور فى أطواره المختلفة، من مشاجرات، إلى عداوات، إلى منافسات!

أما وقد استقر على حال معينة، فرضتها الظروف، فقد أخذ شكل الحيطة والحذر.. لكى لا يتقوى أحدهم على حساب الآخرين، وكل من له عينين فى المصنع كان يرى، أن «الخواجة المدير تودرى» هو الذى يغذى هذا الصراع، ويعمل على بقاء توازن القوى.

وكل أسطى صار «عمدة» لقطاع من العمال، وفائدة هذا التوازن، أن الجميع يلجأون إلى الخواجة المدير لحسم الخلافات بينهم.

والجميع يتنافسون، إذ يستمر الجميع فى النفاق والدس على زملائهم، وإظهار كسل الآخرين، بزيادة انتاجيتهم، وتحميس أتباعهم على العطاء بدون مقابل..

وإن كان المقابل يحصل عليه الأسطى، وهو فى وضع شيخ القبيلة الموالى!

وعند تطبيق هذه «السياسة» فى المصنع، كانت لها آثارها الخطيرة فى حجب الخبرة، والإطاحة بأى عامل يبدى نباهة وتفوقا، حتى لا يطغى صيته على صيت الأسطوات الجهلاء، الذين لا يجيدون إلا النفاق، وتبرير الاستغلال الذى يقع على كاهل العمال والصبية.

وفى تلك الأجواء - فيما عدا الأسطوات - لم يكن يسمح لأجر أن

يرتفع ولو بالعلاوات الدورية، التافهة، وصار من العادة أن يتم سنويا إنهاء خدمة البعض، وتعيين آخرين، لذلك كان يذهب عامل ويأتى آخر، دون أن يحفل أحد بتلك العمليات الدورية..

إذ يختفى وجه كالح، ويأتى وجه له نفس الملامح الطينية، وربما يرتدى نفس الملابس المهلهلة، فلا يشعر أحد بالتغير فى المصنع، مادام الأسطوات على حالهم، فالعلاقات بين عمال المصنع باهتة، ومتوارية خلف التنافس الذى يتم بين الأسطوات ويشغل الجميع.

إلا أن تعيين - فؤاد حسين - أحدث ردود أفعال فى المصنع، وبين العمال، اختلفت عن تعيين أى عامل آخر، وهى ردود أفعال لاتتم إلا إذا تبدل أسطى كبير ، أو حدث شقاق بين أسطى - وبين جناب الخواجة المدير.

معظم العمال، اعتقدوا أن هذا الشاب الوجيه الذى تم تعيينه، سيكون ثالث «الموظفين» الثابتين بالإدارة.

إذ أنه فى ملابسه النظيفة الغالية الثمن، وهيئته التى تنم عن أنه «ابن ناس»، لا يظن من يراه أنه سيشتغل صبيا مع الأسطى عزيز الذى لا يجف عرقه منذ أن يخلع ملابسه - حتى يرتديها - إذ أنه يعمل كالمكوك، يحمل رزم الورق، ويعود بها، والأسطى عزيز لا يكف عن زجره حتى يلاحقه، ويزداد نشاطه، إذا ما كان الخواجة المدير بداخل عنبر الإنتاج، والمفاجأة حدثت للعمال والصبية، وهم يشاهدون الشاب المتختخ ببنطلونه الصوف، وحذائه الجلد الإنجليزى - دون أن يخلع قميصه التروكلين ويرتدى ملابس للعمل - كان فؤاد يعمل بكامل ملابسه الغالية - وعندما اشتد الحر، خلع القميص مثل

العمال العرايا، وصار بالفانلة الشبكية، وظهرت فى رقبته السلسلة الذهب الرفيعة التى تنتهى بمشغولة ذهبية، كماظهر جسمه الأبيض الذى استحال فى بعض أجزائه إلى لون الجزر الأفرنجي، والصبية والعمال صاروا يتأملون الجسم البدين نوعا، وينظرون إليه فى خبث كمن يتطلع إلى أنثى بالغة، لم تغادر شلتة الحريم، إلا لتقوم بالعمل على سكينة القص، والأسطى عزيز، يصفق فرحا، بأن من صبيانه ذلك الولد الملظلظ الوجيه، صائحا :

– اللى رماك على المر يا ابنى، شهل ياخويا، اجرى شوية.

والعمل الذى كان يقوم به فؤاد – مخصص له ثلاثة من العمال، ولكن عند وجود عامل جديد، يعكمونه فى الأعمال الشاقة، «ويستكردوه» يوما، أو أكثر بتواطؤ واضح من الجميع.

وفؤاد حسين، خدوده صارت حمراء، وعيونه العسلية صارت حمراء، وشعره الذى كان مسبسبا فى لون شعر الخواجة تودرى، كستنائياء صار الآن مهدلا على جبهته فى خصلات مبللة بالعرق.

وقد أثبت فؤاد، أنه يستطيع تحمل شقاء العمل بالساعات، لكن بعض العمال كانت تحركهم نوازع غامضة فى أن يوسخوا ملابسه بشحم الماكينات، أن يجعلوه مثلهم، فهم يشاهدون شخصا مميزا عنهم فى أشياء كثيرة، ومختلف عما اعتادوه من العمال المرهقين ووجوههم الطينية المصفرة، وأجسادهم الهزيلة.

فى ذلك الوقت كان فؤاد حسين يغادر عامه التاسع عشر، له وجه صبى جميل، وكثير من العمال، سألوا «كيف لهذا الشاب الوجيه أن يضل طريقه إلى الجامعة، ويجىء – هنا – ليعمل بين العمال

الأشقياء، ويحصل مثلهم على الأجر الهزيل، ياه، البلوفر والقميص والبنطلون والحذاء.. وحتى الجورب الغالى الذى يضعه فى قدمه.. كل شىء ينطق بأنه ابن ناس ميسورى الحال.. فالمنديل خرج من جيب بنطلونه، أبيض، مكويا، جفف به عرقه بطريقة الضغط وليس المسح، فؤاد فى كل تصرف يأتى به يزيد من إثارة الأقاويل بشأنه - فمن قائل «أنه جاسوس، دسه الخواجة تودرى بيننا، يكشف أسرارنا، وبعد فترة سنجده رئيسا علينا، كاشفا لما أخفيناه» ومع أنهم توصلوا بأن الذى عينه فى المصنع - أو توسط له - هو الأسطى عبد الغفار - لكنهم يعلمون بأن الأسطى عبد الغفار «رجل طيب» ويمكن خداعه.

واستمرت حالة الاستكراد - لفؤاد - قائمة لعدة أيام، فى شقاء متواصل، أى شخص قليل العزيمة، كان لابد وأن ينقطع عن العمل، لكنه أثبت أنه طويل البال، ويستطيع أن يتحمل الشقاء، مثله مثل أى عامل من العمال الذين ولدوا على أبواب المصانع.

وقد صار لفؤاد ملابس قديمة للعمل، وملابسه التى يأتى بها يخلعها ويحفظها فى الدولاب، وأثبت أنه لا يأنف من العمل فى أى شىء، وصار يجارى العمال فيما يعملونه، ويجرى مثلهم بحمولته ويسبقهم، وبعدها أخذ العمال النافرون منه، يتقربون إليه ويخاطبونه ويوجهون له الأسئلة التى كظموها:

- ما الذى رماك على المر يا فؤاد ياخويا.. وسمعنا إنك ساكن فى عمارة بالمندرة على شاطىء البحر، وإيجار شقتكم، ضعف مرتبك فى شهرين؟

وتحدث فؤاد مع العمال، علموا منه أن والده تاجرا، له دكان

خردوات يبيع المياه الغازية على شاطىء البحر، وأنه كان يكره المدرسة موت، وبعد أن رسب فى الإعدادية، قرر أن يعمل فى وظيفة وأقسم للعمال بالختمة الشريفة، أن ليس هناك أى ارتباط يربطه بالخواجة تودرى».. ارتاح العمال.

وسأله أحدهم: لكن شكلك.. شكل الخوجات يا فؤاد.. أبيض مثلهم، وترتدى ملابسهم، وتضع سلسلة ذهب فى رقبتك.. ومنديلك مكوى، وتقول إنك راسب اعدادية لماذا لم تعيدها؟ وتشتغل موظفاً كما الذين يشبهونك.

وضحك فؤاد.. وحكى لهم عن النزاع الذى دب بينه وبين والده، وكيف أنه رفض الوقوف معه فى الدكان، وأصر على أن يبحث لنفسه عن وظيفة، فلم يجد وظيفة إلا هنا.

وشخر أحمد العمال مستهينا وقال :

ودى وظيفة يا روح أمك..؟

لكن فؤاد حسين كان قد اعتاد على أساليبهم الانفعالية فى الرد والسؤال والتعليقات التى كانت تصدمه، وتعلم كيف يمثل شخصية عامل – رامى جتته – مثلهم، ويرد بنفس العيار .

والعمال إذا استقبلوه بينهم، كان ولابد وأن يعرفوا عنه كل شىء، نصحوه أن يخلع السلسلة الذهب، فإنها تجعله يبدو كبنت بنوت، فخلعها، وعاد ولبسها، وعندما أخرج حافظة نقوده، جعلوه، يطرح كل ما فيها من أوراق وكرنيهات، «هذا أبونيه للترام درجة أولى حتى الذهاب إلى محطة فيكتوريا، وهذا أبونيه القطار، عندما أركب القطار من فيكتوريا إلى المندرة.

وتدخل أحد العمال: ولماذا لا تركب القطار من محطة المندرة إلى سوق باكوس، مسافة واحدة تروح وتجىء فيه.

أجاب فؤاد ببساطة : عندى اشتراك فى أتوبيس ٢٥ الذى يمشى على البحر، وأبونيه القطار للطوارىء.

وشاهد العمال، كرنيها آخر، أبلغهم أنه كرنيه النادى، فهو عضو فى نادى سموحة.

وقال له عامل : لماذا نادى سموحة بالذات؟ أفضل لك أن تكون عضوا فى نادى الاتحاد.. لتشاهد اللعيبة، أو تلعب معهم؟.

ورأى العمال فى محفظة فؤاد عدة جنيهات جديدة مفرودة بطول المحفظة، والعمال تناقلوا أخباره، وبعضهم كان يتفكه بها، وبعضهم سخط عليه، وقرر أحدهم أن «يلت أمه علقة، ويحيل حياته فى المصنع إلى جحيم لا يطاق».

هكذامن الباب للطاق.

* * *

العمال - المغتاظون - قالوا عن ملابس فؤاد حسنين، أنها ملابس قديمة من خرج بيوت البكوات التى تعمل أمه عندهم غسالة. وسخروا من مشيته وهز أردافه.

والولد دوقة - قرر أن يلطه ويكسر عينه، وعن بياض بشرته، قالوا: إن دمه تقيل ومتقنزح.

وعن سندوتشات اللحم البارد، والبسطرمة، والجبنة التركى التى يأكلها فى ساعة الغذاء عندما يجلس بينهم، قالوا: إنها من بواقى سفرة الناس التى تعمل عندهم أمه طباخة.

وانتهوا إلى تجاهله، وخصامه ومعاكسته، والرد عليه بقسوة.

وواحد أو أكثر أخذ يتحرش به ويجر شكله، وأحدهم حاول أن يضع يده على عجيزته، ودوقه بالذات، أصر على أن «يفقع فؤاد علقة ويمرمط بكرامته «أهله» أرض المصنع».

وفؤاد يقابل كل ذلك بأعصاب باردة، كان يسحب ناعما ويفوت ما يستشعر بأنه مطبات لجره إلى مصادمة، يقفز على الإهانات، إلا أن الأمور كانت تتفاقم وتتطور – كماأراد لها الولد دوقه العفى – وحدث التصـادم، وتماسك دوقـه مع فـؤاد بالأيدى، إذ اختلق دوقـه أسـبـابا واهية سريعا ما صارت فى حجم ماكينة الأوفست القديمة.

ثم هـجم دوقــه على فـؤاد فى إصــرار أن يـعـبطه، ويوقــعـه على الأرض، ويتمنى لو أنه تمكن أن يجعله منبطحا على وجهه وركب فوق ظهره وكسر عينه، وفؤاد تراجع وأفلت، وهو الذى طوق خصر دوقة وحاول أن يطيح به، وبريقع السفروت هجم ونتش السلسلة الذهب من صدر فؤاد وجرى بعيدا، وعندما حاول أن يلحق به، شنكله دوقه، لكن فؤاد تساند على رصة الورق، ولم يسقط، وعاد للاشتباك مع دوقه – الذى كان يصيح فيه :

– حاطط عقد فى رقبتك مثل البنات يا روح أمك.

وأخذا يتبادلا اللكمات والدفع والتماسك، وكلاهما يحاول اسقاط الآخر أرضا، وفوجىء العمال بصمود فؤاد البنوته أمام دوقه العفى الذى لا يصمد عامل أمام رزالته، وقد تحلق العمال حولهما، وتدخل البعض بحجة تخليصهما محاولين شل حركة فؤاد ليتمكن منه دوقه زميلهم، وفؤاد جعل ظهره فى حماية رصات الورق وأخذ يقاوم

الجميع، خاصة الذين يجذبون بنطلونه ويريدون كشف عورته، وذلك الذى يريد أن يسلب حافظة نقوده، والجنيهات الجديدة المفرودة فيها تداعب خياله منذ أن شاهدها، وكان فؤاد يتصدى، دون الاستغاثة، أو شكوى، أو حتى محاولة الهروب من أمامهم إلى مكاتب الإدارة، وقد احتقنت وجنتاه، وتهدل شعره، واتسخت ملابسه، وخمشت رقبته بالأظافر.

كنت قد سمعت الصياح، وأتيت من قسم الفوتوليتو، وجدت الحلقة، والعمال يقهقهون ويسخرون من فؤاد، ويشجعون دوقه، ويسبون أمه وأباه، اندفعت إلى قلب الحلقة، وجعلت فؤاد فى ظهرى، وتصديت لدوقة، فتهدل، وتوقف، عربد قليلا وسب بألفاظ قبيحة، وانصرف.

كان فؤاد يلهث وهو يستعدل ملابسه ويطمئن على وجود المحفظة، ويغمغم: خطفوا السلسلة.. بريقع خطف السلسلة.

صحت فى العمال: هل هذه جدعنة؟ كلكم على واحد.

انصرف العمال إلى أعمالهم، وجذبت صندوقا فارغا أجلست فؤاد عليه، وأخذت أطيب خاطره، وهو يردد :

– السلسلة الذهب، بريقع خطفها.

طمأنته بأن السلسلة ستكون معه قبل أن يغادر المصنع.

جلس يلهث ويحاول التغلب على انفعالاته، وفيما يبدو كان قد سيطر على نفسه، وعاد إلى حالته الطبيعية، أخرج مشطا صغيرا ومشط شعره وأخذ يعالج الاتساخ والكرمشة على قميصه، وينفض بنطاله، ويمسح أكمامه، وبالمنديل يكبس العرق الذى تفصد خلف

أذنيه وعلى جبهته.

ونظر إليّ نظرة طويلة، توقعت بعدها، أن «نفسه» ستصعب عليه وينشج بالبكاء، لكنه ابتسم، على غير المتوقع ، ضحك، والحيرة تبدو فى عينيه، لا يدرى سببا لكى يتعاركوا معه، لا يدرى ما الذى آثار عليه معظم العمال، وجعل الآخرين يقفون موقفا سلبيا.

مرة أخرى أخذت أطيب خاطره، وأحدثه عن طباع العمال «القش» سريعا ما يشتعلون ، وسريعا ما يخمدون.

كنت قد استمعت إلى بعض تعليقات العمال بشأنه، قلت له :

– لا تلوم العمال.. لا أنت ولا هم السبب.

عاد يكرر : السلسلة الذهب.

وجاء الولد دوقة، وبيده السلسلة الذهب، ناولها له فى صمت فأخذها فؤاد وهو ينظر إليه معاتبا. دفعت دوقة فى ظهره، فاندفع فى صدر فؤاد، احتضنه، واعتذر له قائلا :

– كان نفسى أمرمط بك أرض المصنع.

قال فؤاد : لماذا .. هل أسأت إليك؟

قال دوقة : مزاجى كده، أنا حر يا أخى، أنا حر فى مزاجى؟

قال فؤاد : لكنك لم تقدر أن تسقطنى على الأرض، وكان فى امكانى أنام بك وأخذك بقدمى وأطوح بك فى الهواء، لكن راعيت أنى عامل جديد.

وأخذ دوقة ينظر إليه فى تحد، ثم قال :

– على العموم، إنت عجبتنى لما قاومت ولم تصرخ وتستغيث كما النسوان.. إيه.. هل ستشكونى عند الأسطى عبد الغفار؟.

أطرق فؤاد صامتا.

فقلت : المسامح كريم يا جماعة..

ولما انصرف دوقة، قلت لفؤاد: اليوم تم تدشينك!

قال : يعنى يبهدلونى؟.

قلت : هكذا يكون التدشين الذى يعقبه الاندماج!

٦

□ ما بين نهار مقسوم إلى قسمين، وليل مقسوم إلى قسمين، كان يمكننى أن أمضى عدة أيام فى إغفائة الوحدة والتأمل.

مـا بين رمـال الشـاطىء والموج - كنت أجـد مكانى فى الميـاه الضحلة، أبحث عن المحارات القديمة التى لا تصلح إلا للزينة.

ومـا بين عـام مـضى، وعـام يجئ مـحـمل بالأحـداث.. كنت أنتظر شيئا خاصا بى..

شيئا غامضا سيأتى.

ويخصنى بهداياه.. وحدى!

* * *

كـان الحـاج عبـد التـواب الإخوانى، الذى يتـرأس قسـم التـغليف بشركة الحلويات، كان قد تزوج تسـعة زيجـات، فى وقت من الأوقات كان على ذمته أربع سيدات، يقمن فى بيت من بابـه بعزبة الحجيرات الواقعة قبلى أرض الموز المختلطة بأرض باكوس القديمة.

وعبد التواب - بزيجاته العديدات، ومعظمهـا من بنات وسـيدات المصنع. تأتى الواحدة للتعيين، تصـحب معها مشكلتها الاجتماعية الذى يكون «الفقر» حصانها الوحيد، يشدها إلى المتاهات.

الرجل الورع - أو هكذا يبدو من صلاته، وأحاديثه، ولحيته - كان يستمع إليهن، على أمل أن الله لا ينسى عبيده.. «وأن الشكوى لغير

الله مذلة»..

وإذا ما تكلمت السيدة ، تعرت أمامه، وانكشف عليها، وإذا ما وثقت فيه، سفحت أسرارها قدامه، يقلب فيها ويشترى بأرخص الأثمان، وفى اعتقاده، أن الحلال بين والحرام بين - وإذا ما عالج اشتهاءه بورقة المأذون، فإن الشروط التى يتمسك بها، لا تمثل إذعانا، فاللاتى يتزوج بهن عاملات ومدركات ، وتتم موافقتهن صريحة أمام شهود عدول.

تسع زيجات، ولم تأت إليه إحدهن بالولد الذى تمناه من الدنيا الغرورة الفانية، «المال والبنون زينة الحياة الدنيا»..

لقد توافر له المال الحلال - أما البنون، فقد ظلوا فى علم الغيب.

وفجأة.. تم عقد قران كوثر أنفوشى على الحاج عبدالتواب الطنطاوى، رئيس القسم وانقطعت كوثر أنفوشى عن الإتيان إلى المصنع.. وعلمت من نوال المنياوية - وهى تبتسم فى خبث بما يعنى أن «نقبى طلع على شونة» بأنها حامل.. ويخشى الحاج عبدالتواب أن يخدشها الهواء الطائر!

كنا قد أمضينا ليلتين رائعتين وهى تقوم بتجربة المسدس فى صحراء وشاطىء مرسى مطروح.

وحاولت أن لا أفكر فى ذكاء كوثر أنفوشى، وهى التى كانت معى تسخر من الأسطى عبد التواب، المملوء بالرغبات الوحشية، وذلك الإيمان المخادع الذى يعالج به انهياراته الداخلية.

لم أكن أتصور أن ينتهى بها المطاف وتتزوج من الأسطى عبدالتواب.. المزواج.. شهريار الشركة.. المتعبد، والذى يصب جل

اهتمامه على «المسجد الصغير» الذى قام بإنشائه مكان «الكانتين» ومن أجله جمع التبرعات من العمال يوم القبض، وزوده بكل ما يلزم المصلية، وهو الذى دأب بأن يترك عمله، ويصلى بالعمال وقت الظهر، ووقت العصر.. كما أنه هو الذى يطلق الأذان.

والرجل الذى لم يرزق بطفل يقول له .. «يابابا».. من تسع زيجات سابقات - كيف أمكنه أن يقنع كوثر أنفوشى؟ حبيبة قبارى الرزيل، من بقايا فتوات عصر مضى، لابد وأن «مشاكل»، الست كوثر توقفت، عندما عثروا على جثة قبارى عبد البارى مقتولا، ومضروبا بخمسة طلقات رصاص، والجثة ملقاة فى الملاحات، قبلى ترعة المحمودية، غرب مطار النزهة، هناك حيث الملاحات المزدحمة بالبوص، والهيش، وقليل من الصيادين، وكثير من الهاربين من وجه العدالة!!

وقيد الحادث ضد مجهول..

وقيد المولود الذى وضعته كوثر.. باسم عبد التواب إبراهيم طنطاوى، وأطلقت على المولود اسم «عادل».

وبعد عدة شهور من الولادة.. جاءت كوثر راكبة تاكسيا إلى الشركة، والعاملات شاهدن مولودها الجميل، وعددا كبيرا من العاملات والعمال، نقطوها بالنقود، والحاج عبد التواب كان فخورا ومزهوا.. بولده.

ذهبت إلى عنبر التغليف - كانت الست نوال المنياوية قد أرسلت إلىّ مرسالا، لا أدرى هل طلبت منها كوثر ذلك، أم أنها تصرفت من تلقاء نفسها، ودون اندفاع، اقتربت منها، وسلمت عليها، رفعت الطفل

نحوى، وكانت تنظر فى عينى، كانت تريد أن تقول شيئا يملأ حلقها وعينيها، ولم أجد فى جيبى إلا نصف جنيه، وضعته فى لفافته.

وبينما كان عبد التواب يشكرنى على «النقطة» كانت كوثر تقول:

– بص جميل إزاى. بيتهيألى لما كنت صغير. كنت تشبهه..؟

فى ذلك الوقت وأنا مقسوم إلى قسمين، كان فى إمكانى اسقاط الكثير فى الهوة التى بين القسمين.

أستبعد أن يكون هذا الطفل الرائع.. نتاج ليلتين، كانت فيهما كوثر حذرة، وهى تعلم مدى خصوبتها.

وأستبعد أن تكون هى التى قتلت قبارى، استدرجته إلى الملاحات وأطلقت عليه الرصاصات الخمس المتبقية، وألقت بالمسدس فى الملاحات، وعادت أدراجها.

وأستبعد أن تكون بمكوثها معى فترة كافية، خبرت طباعى، وبدلت خطتها من تجنيدى لتحقيق أغراضها، إلى تجنيد الأسطى عبد التواب، الذى قد يجد فى إنقاذ روح من الفساد لا أهمية فى إزهاق روح أخرى ضالة.!!

وأنا ليس لى صورة للطفولة، والطفل الرائع الذى حملته بين يدى كان يشبه أختى عديلة.. عندما كانت رضيعة.

والمسألة برمتها، كان لابد من اسقاطها فى الهوة، وإهالة تراب النسيان عليها.. وأنا ألعب أكثر من دور، وبعض الأدوار تأتى عرضا فى غير موسمها الطبيعى..!

فتحتاج لكثير من الدفء حتى لا تموت بفعل الطل والبرد اللذان يلازمان – عادة – ظهور فجر كل يوم جديد.

وقد صار – بين الذكرى والذكرى – كومة من النياشين التى أمنحها لنفسى، كسياسى، يلتقى سرا بعدد من الحالمين، يتحدثون عن يوتوبيا بعيدة المنال، أو كدارس بالمرحلة الثانوية – بعد أن فاته قطار التعليم عددا من السنوات – لا يستطيع أن يمنح تلك المرحلة المهمة من التعليم إلا ربع عقل.. والدور الطبيعى أننى «عامل فنى» فى مصنع.. تم وضعه تحت الحراسة، وصار جزءاً من المؤسسة الغذائية – وإذا ما فحص السادة المسئولون تلك المواد الغذائية التى تنتجها المطبعة، وجدوا أن عنبر المطبعة يمكن سلخه وضمه إلى مؤسسة الكيماويات، أو مؤسسة الطباعة، أو أى مؤسسة أخرى غير غذائية.

وعليه، فقد شرعوا فى فصل «عنبرنا» عن شركة الحلويات ليحرموا عمال المطبعة من أكل الحلويات والشيكولاته والبسكويت ومن المرور بمراحل المراهقة بدون عقد فى حياتهم..!

وقد تحقق لنا نوع من الاختلاط يسبق أوروبا، بمراحل.. فإذا كان عندهم فى أوروبا، كل فتاة لها بوى فرند – فقد كان – عندنا – لكل بوى فرند.. أكثر من فتاة، والذى يتمتع بالحيطة والحذر.. لا يصادق العذارى.. وعنده عدد كبير من السيدات، المطلقات..

إذا أكلن وشبعن، ولبسن الملابس «التى تباع بالأجل» صرن، سيدات جميلات يلفتن النظر بشدة.

«سيدة ناضجة وعاقلة لا تعطى شيئا مرغمة..».

من يستطيع إرغامها على شىء لا تحبه أو تهواه..؟

تشترى مسدسا.. وتعمل على قتل قبارى فى الملاحات ، أو تدعونى إلى مرسى مطروح لضرب الرصاص.. من يدرى.. قسوة

ردود الأفعال عند المرأة؟!

وخاصة السيدة كوثر أنفوشى الجميلة.. المقهورة.. التى فقدت ابنها الأول، وهى تلهو على شاطىء البحر..!

* * *

الخواجة بندليس، شخصيا، حكاية مجسمة، يصيبنى تأثيرها، أكثر من كل الحكايات التى أسمعها منه بالجريجى المكسر، الذى صار لغة عربية محبوبة، حدثنى كثيرا عن كفاح الحزب الشيوعى فى بلاد اليونان، وعن النضال ضد الحكومات العميلة المرتزقة من الرأسمالية العالمية، وعن ماركس ولينين وماو، وهوشى منة، والجنرال جياب، وصديقه ماركو الذى سلم له ذقنه فنحاها وخطف زوجته، بحجة الحرية، وأن كل إنسان اشتراكى يجب أن يكون حرا.. أسقط بندليس فى الفخ، عندما جعل زوجته كاثيا تختار فى حرية.. فجمعت أغراضها وسافرت فى أعقاب ماركو.. أنها الآن تعيش معه، عشيقة أو صديقة، لا يهم، فهو الذى طلب منها أن تختار، تمنعت قليلا.. ثم اختارت ماركو، كما أنه صار يحب كل شىء فى اليونان إلا المرأة اليونانية المتقلبة غير الملتزمة، يرى أن موقف المرأتين سىء، هناك التزام.. إذا اخترت فى البداية، يجب أن لا تبدل موقفك، من يبدل موقفه ليس حراً، أنه ليس ملتزما إلا بأهوائه، العاقل من يحدد هواه منذ البداية، ويلتزم بمسئولية الاختيار الذى سيكون بمحض إرادته.

كان اسم (جليلة) يأتى عرضا، تجنب أن يستفيض إذا ما ذكر جليلة، لعله كان يخشى إحساسى بأن جليلة من قبيلتى، وعلىّ أن أدافع عنها، أوقع عليها العقاب، وإذا ما ذكر اسم (جليلة) كان

بندليس يعض شفته السفلى، حتى يكاد يدميها، وإذا ما أفرغ صدره من الهواء، بدا مهدلا محنى الظهر، يقول :

- آه يا رابونا يا بتاع المسلمين، يا بتاع المسيخ.

وبثقة مفرطة يحدثنى حديث المعجبانى الذى يذوب فى العشق والرغبة، إنها جليلة حبيبة القلب!

* * *

الخواجة بندليس يعرف أن كلمة «خنزير» يعتبرها أولاد العرب المسلمين سبابا قبيحا، لذلك فهو يفضل أن يطلق على جابر، «الخروف»، وفى ظنه أن الخروف سيكون أفيد للجميع عن جابر، الخروف يذبح، ويؤكل لحمه، ويستفاد بصوفه وجلده.. لكنه لا يرى جابر نافعا - يراه يجمع بين الكلمات المشهورة التى رددها السياسيين والسسيولوجيين كثيرا، الفقر والجهل والمرض..

وأضاف بندليس على هذه الكلمات «النوم والكسل والغفلة».

وجابر الخروف مع طول عمله فى قسم التصوير، لا يعتمد عليه بندليس إلا فى النظافة وجلب الاحتياجات، ومن الضرورى أن لا يطلقه إلا إذا تأكد أنه ألم بالمطلوب تماما، فهو عادة ما يذهب ويأتى بغير المطلوب، والذى كان يصعد بجنون بندليس وعصبيته، إلى أقصاها، أنه كلما تحدث مع جابر الخروف باللغة العربية، جابر يسمع ويسمع.. ثم إذا فرغ بندليس يسأله جابر :

- قصدك إيه يا خواجا موش فاهم؟

مع أن الخواجة بندليس كان يقول كل كلمة، وينتظر هزة من رأس جابر، وأن يقول بلسانه - «آه وبعدين» - ومع ذلك، فإذا فرغ بندليس

من أقواله، سأله جابر فى براءة :

قصدك ايه ياخواجا موش فاهم؟

يصاب بندليس بالعصبية الشديدة- يضرب جبهته ويضرب الترابيزة بكفيه ويدور حول نفسه، يضع يديه فى جيوبه ويخرجهما، ويعقد ذراعيه على صدره ويفكهما، أنه يعانى من إحباط، يجعله يشعر بإهانة شديدة، هو الذى يثق فى قدراته العقلية.

وكأن جابر الخروف، يقول له: أنت لازلت خنزيرا يا خواجا بندليس، والخنزير لا يتكلم عربى، وفى المحاولات التالية، يقوم جابر بإبداء الفهم، وأن كلام الخواجا دخل عقله كلمة، كلمة، فليس هناك داعى للتكرار الذى يعلم الشطار.. وإذا طلب منه أن يثبت له ما فهمه من كلامه، سيجد بندليس أن جابرا .. فهم ما يقصده بالمقلوب، ويحلف جابر بالبخارى.. أن هذا ما قاله بندليس .

يعود الخواجه ويقول :

– أنا بندليس.. بندليس بابا إستاثيغو.. هل أعرف أتكلم عربى ياجابر أم لاء..؟!

جابر يتلفت حوله فى حيرة بادية ويقول :

– يا خواجة أنت بتتكلم عربى لبلب.

يقوم بندليس بتفحصه، يبعد ويقترب منه، ثم يقول :

– أنا بتكلم عربى لبلب، وأنت لا تفهم منى ولا كلمة، وتحلف بالبخارى إنك فاهم، تعرف ياخوخوم.. أنت بماذا تحلف ؟.. ما هو البخارى؟..

وجابر بعد أن يهز رأسه بأنه يعرف.. يدرك بأنه لا يعرف شيئا

عما يقسم به.. يعود بندليس ويقول له :

- أنت تظن أنه المصحف الشريف ؟

جابر يهز رأسه بالموافقة ، بندليس يضحك ويقول له :

- البخارى.. نسبه إلى مدينة بخارى، عالم من علماء المسلمين كتب كتابا فى أحاديث النبى محمد.

أحاول أن أتدخل لأفض الاشتباك بين الخواجة بندليس، وجابر، الذى يتسم بالجهل، لكنه يوقف وساطتى، إنه يريد أن يستعيد ثقته فى لغته العربية، هو الذى يثق بأنه قطع شوطا فيها، وهو يتفاهم بها مع أهالى الإبراهيمية، والعاملين فى المصنع، ومع رواد المقهى هناك، وعدد كبير من أولاد البلد من أصحابه يحكى لهم .

فلا يقولون له كما يقول جابر خروف :

- قصدك إيه يا خواجا موش فاهم.

* * *

«دع جابر المسكين يا خواجه بندليس ، دعه لغبائه، أنت الذى اخترته غبيا حتى لا يتقن عملك بسهولة، والآن تعانى من غباء جابر، الذى جعلك تتشكك فى قدراتك على تعلم لغة البلد الذى تود أن تعيش فيه، عمرك الباقى»..

* * *

كان الأجانب يعيشون فى مصر ، كجاليات أجنبية، وبعضهم يولد على ترابها، لكنه يحتفظ بجنسية البلد الذى أتى منه، لم يكن يتشرف الأجانب بحمل الجنسية المصرية، وهم يرون المصريين - درجة ثانية - والمزايا مقررة للأجانب سلفاً، وكان الحصول على الجنسية

المصرية قبل قيام الثورة، سهلاً وميسوراً، ولكن بعد قيام الثورة، ودفع المصريين إلى أن يتبوأوا المقدمة فى بلادهم، صار الحصول على الجنسية المصرية «مشكلة»، بل أن «الثورة» لم تكن تسمح بأن تعطيها إلا باثبات أن الطالب مصرى، مصرى أبا عن جد..

ووقع الخواجة بندليس فى المطب، وخاصة عندما قرر الأجانب الرحيل إذ وجدوا أنهم فقدوا - المقدمة - وسيصير عليهم تجديد الإقامة، وعدم التمتع بالمزايا المقررة للمواطنين فى بلادهم.

ولم يتبق للخواجة بندليس إلا أن يحافظ على «سر الصنعة»، حتى لا يتم الاستغناء عن خدماته، أمام الأجر الكبير الذى يتقاضاه كخبير، ومع أنى كنت قد تدربت على إعداد الزنكات، ولكنى كنت أثق بأن الخواجة بندليس يحتفظ لنفسه «بالفنش» أى «نسب الكيماويات» التى يتم بها تحميض الأفلام بصورة جيدة.

وقد أظهرت له أن «عادل» لا يخون من ائتمنه. وكان قد حدثنى عن إنسان الصين الذى حاولوا تشويه بالأفيون، حتى يضعف أمام الاستعمار الإنجليزى، فيما سمى بحرب الأفيون، ولكن هذا الشعب العريق كان قد قطع مسيرته الكبرى من الظلام إلى النور بقيادة ماو تسى تونج، والحزب الشيوعى منتقلا من الخرافة إلى العلم، كما عبر شعب روسيا المترامية الأطراف، من سيطرة الراهب راسبوتين الذى أشاع مذهب الوصول إلى أقصى اللذة الجسدية للتطهير والتوبة، لكن راسبوتين بكل قدراته ومواهبه فى الخداع، قتل رميا بالرصاص.

كنت قد غضبت، وأخذت أذكر الخواجة بندليس بأقواله السابقة،

وقد ضايقني أنه يسبب الرعب لجابر الخروف - لم ينطق بندليس بكلمة وأنا اثور عليه..

وعندما قلت له «أن أغلبية شعبنا من أمثال جابر الخروف. ودور الكومنستي أن يأخذ بيدهم، ولا يسخر منهم، كان قد فغر فاه، وجلس ينظر إلى بإعجاب، وصفق بيديه وقال :

- برافو عادل. أنت افوكاتو تمام.. وأنا آسف جداً..

فوجئت بموقفه الذى كنت أتوقع نقيضه.

ولم أجد ما أفعله إلا أن أدعى بأننى ذاهب إلى الحمام.

لكى اغادر العنبر، إلى المصنع، تحت.

* * *

ربما لطبيعة فى الكومنستي، وسلاحهم هو الفكر، وتفريغ الأدمغة من الأفكار القديمة البالية، التى تعتريها الخرافات، وإعادة تعبئتها بخرافات جديدة، أحلام يستحيل أن تتحقق إلا بمعارك فوق الطاقة، الطاقة التى ليست فى حوزتنا...!

الخواجة بندليس جعل من نفسه مالكا لأرضى البكر، وكلما وجدنى أستجيب لأمثلته وتحليلاته وجدله الديالكتيكى - عمل على عزقى وتنقية الشوائب وتعريضى لشمس الفكر..

قبل أن يطلق المياه التى ترويني.

ومع ذلك استمر يحتفظ ، بسر مقادير الأحماض التى تجود الفيلم، ومهارته فى رتوش الصورة، أنها اللمسات النهائية، التى يثبت بها - الفرق - بين المعلم والصبى، تلك الموهبة التى تجعل أصحاب العمل، حتى لو كانوا يهودا وفى حنكه موريس ليفى، لا يستغنون

عنه، ويدفعون له أغلى أجر بين أسطوات المصنع.

والخواجة بندليس، عندما حدثته عن فؤاد حسين، وما حدث له، وكيف عبر مرحلة التدشين ولم يهرب ، وجدته يقول :

– على فكرة، البرجوازية الصغيرة دى – زى الزفت، دماغها محشو صراصير وأحلام عظمة..!

وعندما وجدنى أنظر إليه مندهشا.. قال :

– الطغاة، والديكتاتوريين – لا يأتون إلا من هذه الفئة الملعونة!

ولم أشأ أن أستفسر ما غمض عليّ فهمه.. حتى لا يشعر بأن لغته العربية، ليست أداة جيدة للتوصيل.

هززت له رأسى وأنا أبدو مهتماً جداً!

٧

□ إذا ما توهجت روحى وانطلقت إشعاعاتها.. سطور من خيال وسطور من واقع.. سارعت لأودع «عشقى» فى طيات خزينة من حديد، جعلت فتحها بالأرقام السرية، رقم يطابق تاريخ ميلادى، وحتى لا يكشف أحدهم سر فتح الخزينة، جعلته أصفاراً، بين كل صفر.. وصفر.. صفر.. وإذا ما ألحوا لمعرفة رقم الخزينة السرى، كنت أصمت، وهم لم يكونوا من الذكاء أن يعرفوا بأن الصمت، يساوى مجموعة من الأصفار..!!

وأن الصمت – فى تلك المرحلة – لم يكن من ذهب، إلا ليصب فى جيوب المنتفعين.. حولى كانت تتكون طبقة جديدة، تستفيد بدرجة مدهشة من الشعارات العظيمة التى تجعلنا نرفعها.. ونقتنع بها، وكلما كانت قناعاتنا بادية، كانوا يضحكون فى أكمامهم من غفلتنا..!

وفى لعبة الشطرنج، تعلمت عدة حيل.. أهمها، حيلة أن تشغل الوزير بالمهام الجسيمة، وتأكل فرسه وطابيته وتدور حوله.. لتضربه فى مقتل.

فى ذلك الوقت، كانت القضايا المطروحة على الساحة، قضايا جميعها مصيرية.. فانفرد الزعيم بالقرار.. ينهكونه من اتجاهات مختلفة.. وفجأة.. «كش ملك.. مات الملك..».

* * *

كان لابد وأن نلعب دوراً جديداً، لكن الأدوار كانت قد اقتصرت على فئة معينة.. خيل لها، أنها الوريث الطبيعى لريشة التمايز، وأصاب الفشل أهم مبدأ من المبادىء الستة، إذابة الفوارق، وانقلب إلى «تثبيت الفوارق».. بالسجن والضرب والرصاص والآيات البينات!

ولم يعد الحصول على «المؤهل الدراسى» يحركك.. إلا بقدر يسير بداخل طبقتك، ذات الحدود المحمية بالكلاب البوليسية والعسكر.

«انت ابن من فى مصر..؟!!».

ومع ذلك، كنت أحاول ، لم أكن أملك إلا أن أحاول، وكل الذين عرفتهم يحلمون، صاروا هناك فى الواحات.. والذين بقوا يدعون الأحلام، كانوا من صناعة المدارس الأمريكية، مدربين على الإدعاء المبتكر، والمخاتلة، والإيقاع بالشرازم الباقية.

وبندليس، صار منصرفا إلى غرامه المشبوب - جليلة - التى شاهدها أول مرة وهى تعمل فى مخبز العيش الفينو، عندما تحول إلى معرض لبيع المخبوزات الفرنسية والإيطالية، واستخدم فتيات يلبسن ثوبا موحدا.. ولكنهن يتجملن كل بطريقتها الفريدة، كانت جليلة - فيما يبدو - قد تزوجت تحت السن القانونى، وطلقت، إذا ما وصلت إلى السن القانونى للزواج، تسكن بوالينو.. وحصلت على الإعدادية - وصارت تأمل فى الحصول على دبلوم التجارة الثانوى الذى يمكن دراسته فى المدارس الخاصة، أهم شىء ركزت عليه جليلة، كيف تضرب آلة كاتبة، وتحلم بالعمل سكرتيرة فى شركة من شركات القطاع العام، فتصير لها درجة، وعلاوة مقررة، وأرباح، ونسبة فى المساكن، وبطاقة التأمين الصحى، ومعاش يحنو عليها فى

أيام العجز – وأن لا تمر بحالة والدها الكونترجى – الذى مرض فى كبره، فأغلق دكانه، ثم أجرها لمن ينهبها، وعانت أسرته الشقاء..

وجليلة العايقة، والتى تتقن زواق نفسها، عقدت أواصر الصداقة بالخواجة بندليس، زبون المخبز والذى يقيم فى شقة خواجاتى بالقرب من المخبز، فى تلك العمارات التى بنيت على النظام الايطالى، كل شىء فيها ينم عن الفخامة والعظمة.

ولم يكن بندليس يفصح كثيرا عن التفاصيل، إن كانت جليلة بنت بوالينو قد أقامت صداقتها بخواجة يسكن فى مواجهة سينما لاجيتية، ويسهر يوميا على المقهى المطل على محطة الإبراهيمية، وإن كانت هذه الصداقة – أو ذلك العشق – قد قام على منفعة خاصة، يهتم بها الطرفان، فالخواجة بندليس حاذق – وكسيب – ويده «فرطة» كما يقول على نفسه ، بتشبيهات أولاد البلد، وجليلة بوالينو جميلة، ومستأنسة بالصورة التى يعجب بها الخواجات، عندما تجمع بين الزوق الخواجاتى، والطعم البلدى، ومسيو بندليس قد تجاوز الخامسة والأربعين، ودخل فى المنطقة التى تجعل خطواته تتسم بالسربعة، وهو العائش فى مصيف دائم، يشتهى اللحم المعروض على قارعة الطريق، وخاصة اللحم البلدى، لتكتمل سيمفونيته الخاصة.

فى ذلك الوقت، كانت السيدة الأجنبية تتشبه بالصبى فى الصدر غير الناهد، والشعر القصير، وارتداء ملابس يشترك فيها الرجال والحريم – لتثبيت المساواة.

بينما السيدة – البلدى – وخاصة إذا كانت مطلقة، وجسمها أخذ

شكله الهوانمى، فإن بندليس لم ينس علاقته بمدام صافى، تلك السيدة الألبانية، ولعله كان يبحث عنها حتى وجدها فى جليلة، عامرة الصدر، ثقيلة العجيزة، حلوة التقاطيع، والتى تتباهى بأن ضفيرتى شعرها تصلان بأطرفها لتستقر على أول انبعاج من عجيزتها !

كنت قد شاهدتها وتأملتها، وأنا أوصل لها العشرين جنيها التى طلبتهم من مسيو بندليس، ولابد أن هذا المبلغ كان لأمر عاجل حتى أنها لم تصبر حتى يعود من عمله، وأتت إلى محطة باكوس الترام، وكان قد أرسلنى بورقة اللوتارية الكسبانة خمسين جنيه ومعى - العشرين جنيه - احتياطيا، إذا لم أصرف الجائزة من دكانة «نحلة أفندى» بائع ورق اليانصيب بباكوس، أعطيها العشرين جنيه وأبلغها تحيات الخواجة بندليس، كانت الأمارة أنها ترتدى ثوب حرير منقوش بورود كبيرة، وتحمل حقيبة يد بيضاء وفى قدميها شكربين أبيض، وعندما وصلت إلى المحطة، أرسلت النظر إلى الرصيف، شاهدتها، وتعرفت عليها، كانت فى وقفتها تنظر فى قلق، والحقيبة معلقة فى كتفها، وأصابع يديها تتصارع.

وقفت أتأملها، وأنا على الرصيف المقابل، ثم عبرت شريط الترام، ومررت بها من الخلف، ومن الأمام.. ووقفت بجانبها.

استعدت صورة بندليس وهو يعض شفته - مبديا إعجابه الشديد بها، إذا ما تحدث عنها، وجدت أنها أقصر مما تخيلت، وسمينة بعض الشىء، عن الصورة التى فى ذهنى، وسمراء فى لون ماء النيل، كما أن شعرها كان غارقا فى الزيت، يلمع بشدة، ذكرتنى بفتيات الهند، كان ينقصها تلك النقطة الحمراء بين الحاجبين.

قلت لها : حضرتك مدام جليلة؟

انزعجت وهى تتأملنى ، كنت أنحف وأطول، وكنت أتصورها عارية فى فراش بندليس، وأخرجت المظروف الذى وضع فيه بندليس العشرين جنيه، وقدمته لها، أخذته، ووضعته فى حقيبتها فى شىء من التمهل.

قلت لها : افتحيه وعدى الفلوس من فضلك!

قالت : أنت عادل اللى بتشتغل مع بندليس؟

قلت : أيوه أنا عادل.

قالت : بندليس كلمنى عنك.

تصورت أنهما فرغا من كل شىء كزوجين ليتحدثا فيما هو غير مهم، أخذت أهز لها رأسى وأطالبها بأن تحصى النقود أمامى..

فقد كنت أخشى أن تبلغ بندليس أن النقود.. نقصت جنيها وتعمل لى مشكلة، أخرجت المظروف وأحصت النقود وابتسمت فى وجهى وأعادت المظروف إلى عمق الحقيبة.

قالت : الخواجة بندليس رجل طيب، إنسان بحق.

قلت فى نفسى : كيف لا يكون إنسانا ذلك الذى يعطيك عشرين جنيها فى منتصف النهار.. ماذا سيعطيك فى منتصف الليل؟!

اكتفيت بأن ابتسمت فى وجهها، مدت يدها تسلم علىّ، لا أدرى لماذا شحنت كف يدى بإحساس زائد، إحساس شهوانى.

قالت : مبسوط معاه؟.

قلت : تعرفى أنه كومنستى؟

قالت : يعنى إيه كومنستى..؟

لم أرد.. تشاغلت بالترام التى كانت تدخل المحطة، فى جلبة، سلمت عليها مرة أخرى، وسندت ذراعها العارى وهى تطلع سلم الترام، ووضعت يدى على ظهرها، وإذا ما صعدت فجأة، كانت يدى تنزلق على عجيزتها. وكأنى أخشى عليها من السقوط، وحتى لا تحرجنى نظرات الركاب الذين يصعدون خلفها.

قلت لها بصوت عال: مع السلامة، مع ألف سلامة يا مدام جليلة.

فصاحت من داخل الترام: مع السلامة يا عادل.

ولما سار الترام بها.. إلى «البلد»، شعرت بأننى أعرف هذه السيدة منذ زمن طويل، وأن جليلة هذه لها طعم وشكل يختلفان عن عاملات مصنع الحلويات، مع أنها حسب قول (بندليس) تعمل فى المخبوزات، وفجأة تذكرت تساؤلها، يرن فى ذهنى :

– يعنى إيه كومنستى؟!

لماذا لم يعمل بندليس على تجنيدها.. فالح يدوشنى أنا.. لقد جعل عقلى يبرم ويطحن كل شيء، ساعات كنت أرى النيام الغافلين.. الذين يضحكون من قلوبهم.. أفضل حالا منى، ومن الخواجة بندليس، وكم كنت أسب من علمنى كيف أشد أول نفس من السجائر، كنت أحيانا أسب الذى هزنى حتى استيقظت من نومى العميق!!

* * *

كنت فى الواحدة والعشرين، وفؤاد يصغرنى بعامين، عندما حصلنا على شهادة إتمام الدراسة الإعدادية.

بالنسبة لى كانت سهلة، دراستى حتى الثانية الإبتدائية وعدم توقفى عن القراءة والإطلاع سهل لى الحصول على الإعدادية ثلاث

سنوات فى سنة واحدة.

كان فؤاد قد توصل إلى إننى نوع مختلف من العمال، وعقد معى أواصر صداقة، كانت فى مصلحته بالدرجة الأولى، ولم يكن بيننا أشياء مشتركة كثيرة، ومع ذلك وجدت نفسى ارتبط به.

أنا أيضا لا أجد بين العمال من أصادقهم بحق، أضطر إذا كنت بينهم أن أنزل إلى مستواهم، مع بنطليس أرتفع، وحتى مع الأسطوات الذين يحيطون أنفسهم بالأبهة والسخط والنتر والعقاب الرادع والقسوة فى تنفيذ إشارتهم كما رؤساء المنسر، كنت أراهم شخصيات منفوخة على الفاضى، يكتسبون قيمتهم من وظائفهم الفارغة فى المصنع، وهم خارج المصنع لا شىء يذكر، بعضهم يود لو أنه لا يعود إلى بيته!

وهم الذين جعلوا العمال لا يتمسكون حرفيا بساعات الإنصراف فى الموعد المحدد، الساعة الرابعة بعد الظهر، كثيرا ما يمتد الموعد للخامسة أو السادسة، والغريب أن هؤلاء الأسطوات صاروا يلتزمون بموعد الانصراف كما الموظفين، قبل العمال بساعة، عندما وضع المصنع تحت الحراسة، وصار ضمن المؤسسة، أى عندما صار المصنع مصريا، هنا سبق الأخذ العطاء، فى كل شىء صاروا يأخذون، وطالبون بالمزيد، وكفوا تماما عن العطاء، بصفتهم موظفين كبارا ورؤساء أقسام، ويتطلعون إلى أن يكونوا ضمن طائفة المديرين التى تخصص لهم السيارات الخاصة.

وأشياء كثيرة تصادفت وواءمت فؤاد حسين، لوالده علاقات بشخصيات كبيرة ترتاد شاطىء بحر المندرة، وتشترى منه البيرة

والخمور التى يتاجر فيها سراً، وفى إمكانه أن يوصى على ابنه، والطبقة الجديدة فى مرحلة التكوين، معظمها لها جوهر فؤاد، كل ما يهمه مظهره، وكيف يحافظ عليه.

كان قد فتح لى قلبه، وكنت بالنسبة له الطبيب النفسى المعالج فحكى لى كيف يجوع، ولكن من الضرورى أن يكوى البنطلون والقميص ويلمع الحذاء ويركب الترام درجة أولى. وصرح لى بأن الحذاء الإنجليزى الفاخر الذى فى قدمه - يساوى ثمنه ست أزواج من الأحذية العادية.. أنه حذاء طبى يعالج به «الفلات فوت» فى قدمه، وهو الذى يمشى مشية البطة، وقد تغلب عليها بصعوبة ولعب كرة قدم ورياضة عنيفة.

فكنت أشعر بنقيضين من المشاعر.. أكون فخورا به، وفى نفس الوقت أنظر إليه على أنه غير موضوعى.

والمشكلة الأساسية التى تتحكم فى حياة فؤاد حسين وعائلته.

أسلوب معيشتهم، فإن والده يدير دكانا على شاطىء البحر، يرتبط بالمصيف ، يروج لمدة ثلاثة شهور فى العام، ثم ينفض المصيف، ولا يكاد دخله يفى بمصاريف إيجاره واستهلاك الكهرباء.

ووالده دأب على تأجير شقتهم كمصيف، حتى يستفيد بإيجارها فى ركود الشتاء، يؤجرها مفروشة بكل ما فيها، وتتكدس العائلة فى غرفة صغيرة كانت لبواب العمارة، وهم يعيشون بين فئة ميسورة، فيتشبهون بها فى ملابسها وحياتها.

وقد صار الصيف.. يأتى لفؤاد - وأخواته الثلاثة، مع أمهم، بكارثة المكان - والشتاء يأتى لهم بكارثة الزمان، الذى يوقف رواج

الدكان، لذلك رسب فؤاد فى المدرسة الإعدادية، وأمضى بها ضعف المدة ولم يحصل على الشهادة، وهو الذى يشاهد - ما ينفقه أى عامل على كيفه فى المقهى - تقوم أمه بتدبير حياتهم به، ودأب على الجلوس على تربيزة السفرة، أطباق فوق أطباق، ومفارش، وزهور بلاستيكية، وملاعق وشوك وسكاكين، والطعام التافه لا يسمن ولا يغنى من جوع، ومع أن فؤاد ثار على والده - ثورة الابن الأكبر الذى لا يقر له أحد بتصور لحياته، فيتمرد، رفض أن يقف مع والده فى الدكان - وأصر على أن يبحث لنفسه عن وظيفة، يبتعد بها عن النفخة الكدابة على شاطىء المندرة وبداخل عمارة معظم سكانها يثبتون حيثياتهم على تدرجهم الوظيفى وعندما لم يعثر فؤاد إلا على وظيفة عامل بالمطبعة «عندنا» قبلها على وعد من الأسطى عبد الغفار - إذا ما أثبت جدراته، يكلم له الخواجة، ليعمل عملا كتابيا.

ولما أعلن أمام أهله أنه صار موظفا فى شركة الحلويات بباكوس، تصادم معه دوقة، وكان لابد وأن يصمد، حتى لو قتله وأزهق روحه!

٨

□ إذا ما دخل الوالى الشك فى الرعية.. صار للبصاصين الغلبة على دولته - كنت أواجه حالة من الشك فيمن حولى، صار الكلام الذى تهمس به تعاقب عليه، تجده فى مواجهتك، عندما تكون وحدك معلقا فى المكان البعيد - مفصولا عن الجميع بسلم حديد ضيق، تستطيع غلقه تماما بالباب الذى يفتح عليه، على أساس أنك فى حجرة التحميض مشغول لعدة ساعات مع الضوء الأحمر الخافت - وحالات الشك لا تثار بدون دوافع حقيقية، فقد كانت الدوائر المحلية والوطنية، والقومية، محاصرة بدوائر أخرى، عميلة ورجعية واستعمارية.

والصراع محتدم، وجيش مصر فى اليمن يحارب معارك ضارية مستدرجا لحالة استنزاف مؤلمة، وتعاون خفى بين دوائر عربية تتماس مع دوائر صهيونية وأوروبية وأمريكية، وروسيا جائعة وتستجدى القمح عندما يضربها الصقيع، والحصار يضيق على معسكر الفقراء، فالأغنياء يشترون كل شىء، ينفقون عن سعة ويسجلون ما ينفقونه فى دفاترهم ليعيدوا حصده أرباحا.. عندما يتساقط الذين يتحدونهم الواحد تلو الآخر، وفى ذلك، كنت أرى أن هناك بصاً مقرونا بالتأمل، وبصاً من أجل النظر إلى المخلوقات

باستمتاع محايد، أو غير محايد، وكنت أرى أن للبصاص عينين، إحداهما تلتقط المشهد الطبيعي، والأخرى تحيله إلى مشهد مرغوب في حدوثه، يتفق وما هو مطلوب ليحصل على مظروفه المغلق على المكافأة، والمشاهد إذا استقامت، انقطعت الموارد، وفي ذلك هلاك لفئة جديدة، ومهنة ليست جديدة، ولكنها متطورة دائماً.. وقد صارت لها المخصصات الكبيرة، وكنت أرثى لفئة البصاصين الذين في غير ملابسهم الرسمية بالذات ، عيونهم تكون زائغة، تائهة، كمن لم يتدرب على إتقان عمله، أما الذين لم يعملوا بتلك المهنة الشاقة، فقد كانت عيونهم جميلة، تلتقي بالعيون الأجمل، وتطيل النظر إلى الجمال الإلهي الذي تحت الملابس، ولها خطواتها الرشيقة التي تدوس على كل الأرواح الشريرة..!

* * *

في تلك المرحلة.. وأنا موزع بين أدواري العديدة، كنت أستطيع فتح الحوار وغلقه، وكنت إذا فتحته أجعل من يحاورني يتعلق بي كما تعلقت بأساتذتي.. لكن الحوار سيكون بناءًا مع من (يعلمون) ومع من (لا يعلمون).. فالذين يعلمون سيفتحون للحوار منافذ جديدة، وسيلا متدفقا فوق ما أتصوره، والذين لا يعلمون سيقبلون تصوراتي بلا جدل عقيم.

أما المشكلة التي صادفتني، فهم الذين «يعلمون ولا يعلمون» هؤلاء الأنصاف.. أنصاف كل شيء، الذي لا يرتقي خيالهم إلى التصور الكامل، أو ينغلق فلا يكون لهم إلا تصورهم المشوه، ينافسون به، يخففون به قهرهم، وحسدهم، في كثير من الثقافة.

مع الأنصاف، يتجمد الحوار عند المنتصف، يتضخم ويحتبس، ستتحول المناقشة إلى البحيرات المغلقة، يزداد فيها الملح بمرور الوقت فلا يستفيد منها أحد.

كانت «الاشتراكية» قد ظهرت كتطور طبيعى للرأسمالية وأزماتها واختناقتها، وكان المستهدف أن يؤمن العمال بالاشتراكية، فهم الذين سيولدون من رحم الرأسمالية فى تطور جديد.. هكذا نظر الفلاسفة «غير العمال» ولكن تلك الأفكار - توقف سريانها عند زمرة من المثقفين، زمرة من أبناء الطبقة الوسطى، كان لابد وأن يمثلوا المعبر إلى العمال والفلاحين.

ولكنهم وجدوا فيها ميزة لهم، شيئا يملأون به حياتهم المزدحمة بالأحلام المجهضة.

وهالنى أن العمال فى مصر، لم يشعروا بأن الحكومة - قامت بحملتين كبيرتين، واعتقلت المعابر والكبارى، وحملة الآمال.

جمعتهم من البيوت والطرقات والتجمعات والأعمال، هؤلاء «الجانحين» وعمال مصر، يمارسون حياتهم العادية، العادية جداً .

«اعتبرت ذلك انتقاما فى محله».

وكان ذلك أول اضطراب يعصف بشبابى، حالة جعلتنى أتأمل ما يحدث حولى، وبندليس لا يكف عن التحليل والتعميق، وأن يقص حول أى حدث محلى، أو عمالى - مواز - وقع فى أوروبا.. أو فى اليونان، شيئا مقرونا به.

والذين كنت ألتقى بهم، ولا أعرف أسماءهم الحقيقية، اختفوا ووجدت نفسى أقول لنفسى :

- التعصب لا يخلف إلا الأطلال والخرائب..

أخادع نفسى، وأبدل أشياء كثيرة فى حياتى، متوقعا أن القبض علىّ سوف يتم فجأة، وفى مكان لا أتوقعه.. وأنا على أبواب امتحان الثانوية العامة - التى كانت تحتل ربع عقلى - جعلتها تحتل ثلاثة أرباع عقلى - والربع الباقى كان مشغولا بعملى، وبصديقى فؤاد حسين الذى صار - وأنا فى هذا الفراغ - له مقعد المقدمة فى حياتى الجديدة.. التى أحاول أن أقنع نفسى بأهميتها - ولا أهمية لها فى الواقع - والبنت المجنونة سهير.. أخت فؤاد - وحياتها على شاطىء البحر الذى لا يقصده الناس إلا للمتعة، شكل لها عالمها، المدعوم بأحلام المراهقة، مع قصص الذين يهاجرون إلى الخارج.. ويعيشون كما المليونيرات .

كان والدها ابن كرموز وكوم الشقافة، شديد فى حرصه على عياله، وهو يشاهد الساقطات، ويتعامل معهن، يراهن وهن ينتظرن حتى تأتى السيارات وتحملهن إلى الشقق المفروشة، الرجل كان يربى سهير تربية مغلقة، ولكن سهير الشقية، كانت تخدعه، أمامه تكون فتاة ورعة مرتبكة ترتعش لأقل نسمة هواء.. ومن خلف ظهره شيطانة صغيرة، فيها سيمات البنت التى أدمنت الأحلام.

كنت أنا الشخص المتاح لها.

لا أدرى لماذا انشغلت بى، وما الذى مثلته عندها حتى تشعرنى بوجودها الدائم فى كل وقت؟ ومنذ أن شاهدتنى فى بيتهم لأول مرة، أقول الحق - أنا الآخر انشغلت بها.

فهى تختلف عن بنات الشركة حولى.

* * *

حين لا تشاء ولا ترغب، على غير المتوقع يحدث الفعل الذى لم تكن تتصوره، أحاول أن أجعل لحياتى معنى، وأنا المفعم بالآمال الكبرى، اقتربت من منظمة الشباب، فحصلت على المرحلة الأولى والثانية، واستمعت فى القاعات إلى التصور العربى للاشتراكية، فإذا كان من المحتم أن يأتى الحل الاشتراكى تاريخيا، فلماذا لا يأتى متأبطا تعاليم الإسلام، فلنحصل على النصف الاقتصادى، ولندع النصف المادى الذى تحاربنا به الرأسمالية العالمية.. فتؤلب علينا – من أجل مصالحها فى المخزون من الزيت – تلك القبائل القديمة بعاداتها وتقاليدها الفلكلورية.

وكان فؤاد حسين قد لازمنى فى المرحلة الأولى ، وغنى «صورة، كلنا كده عايزين صورة»، والشباب أحاطوا به، وصفقوا له، وكان من بين الزحام ينظر إلى، يسألنى – ما رأيك .. إيه كده كويس؟!

كان مرتبطا بى، لا يتركنى لا فى المصنع، ولا فى البيت.. ويظن ما دمت شجعته ليحصل على الشهادة الإعدادية، فإننى قادر على أن أحمله على جناحى ليحصل على الثانوية العامة.. وصار بيننا كثير من الذكريات التى يمكن أن نقلّب فيها ونحكى منها ونخطط على جوانبها المختلفة، فيظن من يشاهدنا، أننا أصدقاء عمر.. وكل منا عثر على نصفه الغائب.

* * *

كنت قد صحبت فؤاد حسين إلى بيتنا فى أرض سموحة الجديدة، الجهة البحرية الملاصقة لشريط السكة الحديد، بين محطة

السوق ومحطة غبريال عن طريق قطار أبى قير.. المنطقة بنيت حديثا غيطان كانت مزروعة بالموز والنخيل، وكانت من ممتلكات الخواجة سموحة اليهودى، الذى آثر أن يبيعها «نمر» سكنية.. فوجد عمال الشركات التى تتقاطر على ترعة المحمودية، وترعة أفندينا، المتفرعة منها، أماكن يبنونها بأيديهم ويسكنون فيها بعيدا عن زحام قلب المدينة، كان أبى قد اشترى قطعة من أرض سموحة وبنى عليها منزلنا، على نظام الشقق الصغيرة.. وفى ذهنه أن يجد أولاده فى المستقبل، مسكنا فى بيته، والمنطقة تحت الإنشاء، والشوارع غير مسفلتة، والصرف الصحى بالجهود الذاتية.

والفقراء يتكدسون فى البيوت والحجرات، الفقير الذى يشترى ويبنى بيته يسعى لأن يجد من يدفع له إيجارا ليعاونه فى سداد أقساط الأرض أو استكمال المنزل..

وكان فؤاد قد حدثنى كثيرا عن عمارتهم وشقتهم، وغرفته التى يطل منها على البحر، واليود الذى يتنسمه فى الصباح، وحجرته الخاصة، وأشياء كثيرة حدثنى عنها فؤاد ، فعرفت الكثير عن الفئة التى كانت تعبد الأشياء، تستمد من تلك الأشياء قيمتها الاجتماعية – فتضفى على الأشياء كثيرا من الاحترام والتبجيل، تتعامل معها وكأنها تتعامل مع أسياد لهم على حياتها نفوذاً.

وقد علمت أشياء كثيرة مما تحويه حجرته، بنفس القدر الذى علمته عن أمه وأبيه وأخواته إن لم يزد، ولفؤاد طقوسه فى شراء شىء لنفسه، فإن الدافع عادة ما يكون، أن هذا الشىء قد اشتراه آخر، قميص مثلا – على الموضة – يجب أن يسارع ويقتنيه قبل أن

ينتشر على الأجساد الأخرى، فيذهب أكثر من مرة لمشاهدته فى بترينة العرض، ويذهب مرة للمقارنة بين الأسعار التى فى أماكن مختلفة، ويذهب مرة ليساوم، ويذهب مرة ليشترى، وهى مشاوير لها أهميتها فى حياته، ويتحدث فيها مع أمه، وأبيه، ومعارفه، وأخواته، ويدافع عما يراه اذا ما وجد معارضة، أما إذا ما تم الشراء ، فتبدأ حالة التباهى، وقد ينقلب الأمر إلى مأساة، إذا وجد - شخص من غير الفئة العليا - يرتديه، قد يكون ذلك سببا فى هجرانه، والبحث عن شىء آخر لا يستخدمه «العامة» من الناس.

فؤاد.. شاهدته بعين الخيال، مثل راكب البسكليت الذى يمسك بسيارة فارهة فتسحبه خلفها، وهى تسير الهوينا، وتخلفه ساقطا على الطريق إذا ما أسرعت.. !!

عندما نقلت له هذه الصورة، توقعت أن يضحك منها، ولكنى شاهدته يعانى ، افترش وجهه الحزن وقال :

- لماذا هم يستمتعون بكل شىء ونحن فى الحضيض ؟

سؤاله - فى الظروف العادية، كان لابد وأن يطوح به بعيدا عن حياتى، ولكنى كنت أمر بظروف غير عادية، فرضتها الأحوال غير العادية من حولى - أنا أيضا غير مستقر فى مكان لائق.

قلت : هذا السؤال، أما أن يخلق منك مناضلا لا يشق له غبار يا فؤاد أو يخلق منك انتهازيا حقيراً..

ولما نظر إلى وسكت..

قلت : فؤاد : أنت مشكلة!.

* * *

لما دخل فؤاد بيتنا استقبلته أمى على أنه أحد أعيان المندرة، وأبى يرحب جيدا بأصدقائى الذين أحضرهم إلى بيتى، فى ظنه أن الذى صحبته معى إلى بيتى، وجعلته يطلع على أحوالنا، وجعلته فى أحشاء حياتنا، شخص رفعته إلى مرتبة تعلو على الصداقة الطيارى، أو الزمالة المفروضة بحكم العمل، وفؤاد.. والدى رحب به ترحيبا خاصا، فأنا منذ أيام الصبا، بينى وبين والدى صداقة وطيدة.

ولم يكن والدى يعلم بأن - الرفاق - الذين ملأوا حياتى، لهم أساليبهم فى تأمين اجتماعاتهم، وهم لا ينفتحون على الأهل، ويفضلون اللقاء بى فى الأماكن العامة، الآن وقد اختفوا من حولى.. لم يكن فى السوق إلا البضاعة «تانى فرز».

وبعد أن أكل فؤاد على الطبلية، وقد أصرت أمى أن يجلس صاحبى بيننا على منضر الكنبة، كانت الطبلية تزدحم بالطعام فى أوانى قليلة، صينية تضم طبق الفتة والأرز مع قطع اللحم تعلوها، وبامية فى الصلصة الحمراء، ومخلل لفت وجزر إفرنجى، وطبق باذنجان مسقعة من أكلة اليوم الفائت - وأبى الذى أصر على «الفتة» لمشاكل فى أسنانه - والخير على قدوم الواردين - أقسم والدى بأن ينزل فؤاد ويأكل معنا، وفؤاد يتبادل مع أبى المداعبات، يحاول أن يؤكد له أن والده عاش فى كرموز وجيرانهم هناك من الصعايدة العاملين فى الجمرك وكار المعمار، وأبى يقص عليه كثيرا من حكايات الأربعينيات ، عندما كان لكل شارع فتوة، والدى يعيش فى مدينة الإسكندرية منذ الثلاثينيات، ومع ذلك، فإن من يسمعه يتحدث بلهجته الجنوبية - السوهاجية - يظن بأنه حل بالإسكندرية

منذ شهرين على الأكثر.. واضطر فؤاد أمام نائب اللحم الذى خصه والدى به، والفاكهة التى ملأت يديه، وكوب الشاى الذى صار ينتظر ، أن يتحدث كثيرا عن أمه الرشيدية، وعشقها للسمك، وتفانيها فى طبخه، وأنه يتمنى لو أننا جميعا زرناه فى بيته - سارعت أمى لتقول:

- إن شاء الله.. لما تنجحوا فى الشهادة الكبيرة.

ولم يكف فؤاد عن الحديث عن الحى الذى يقيمون فيه، وأخذ يتباهى بشاطىء البحر الذى يأتيه المصيفون ويسكنه علية القوم، والعقيد الذى يسكن فى الشقة التى تجاور شقتهم، والقاضى الذى يسكن فى الشقة التى تعلوهم، ووكيل النيابة الذى يسكن تحتهم، والطبيب المشهور الذى فتح عيادة فى «عمارتهم» من أشهر الأطباء فى مصر.. والعالم...

وكنت أضحك.. فيلتفت إلى متسائلا عما يضحكنى، لم أستطع أن أصرح بأن ضحكى، «من القرعاء التى تتباهى بشعر بنت أختها».

وفيما يبدو.. أن تكرار زيارة فؤاد لى فى بيتى.. واندماجه مع عائلتى جعله يقرر أن الدور جاء عليه، ليصحبنى إلى شقتهم الأسطورية، شقتهم التى جعلنى أشاهد كل ركن بها، وكل قطعة أثاث فيها، فور دخولنا.

كان قد صحبنى معه وقت خروجنا من العمل، ولعله كان يعرف بأن لا أحد من أهله وأخوته هناك، بعد أن صعدنا الى الشقة بواسطة المصعد الكهربائى، فتح الشقة بمفتاحه ودخلنا فلم يستقبلنا أحد.. وشغل الوقت بحكاية تخص كل قطعة أثاث، ثم نظر فى

الساعة، وأدخلنى حجرته الخاصة - حبسنى فيها - إذ بدأ توافد أخواته وأمه.. خرج وأغلق الباب خلفه.

ولعله ذهب إلى أمه ليعلمها بأنه صحب أحد أصدقائه معه.. ويريد أن يقدم له الغذاء.. لو أن فؤاد كان يطلع أمه على ترحيب أمى به وزيارته المتكررة إلى بيتنا، ما كنت سمعتها تحتج وتنهره، وفيما يبدو كان فؤاد قد قدم دفاعا مجيدا عن صاحبه المحبوس فى حجرته الخاصة مع ثلاثة أسرة ومكتب ودولاب، وأشياء شخصية معلقة ومتناثرة، تنم عن مرحلة طفولة متصلة فى حياة فؤاد .

وأعقب ذلك حالة سكون.

لكن بعد أن أتى وغالى فى الترحيب بى - جاءت سهير أخته فى منامة بيتى، وفوقها روب قصير، معقود الخصر بحزام من لون أغمق.. فالروب كما الشربات، أما الحزام فأحمر غامق، ودخلت وبين يديها صينية عليها كأسان من شراب «مياه غازية» الكأسان محتويات زجاجة إسباتس.

كانت تبتسم فى وجهى وكأنها تعرفنى، وإذا ما أشار إليها فؤاد وقال - أختى سهير السنة الثالثة، بالمدرسة الثانوية الفنية .. فقد تسلمت الإشارة وأضافت الكثير.. وهى التى كانت تتكلم، وتتحرك فى الغرفة، وتقدم الكأس البلورى، وتشارك فؤاد مشاركة فعلية فى ضيفه.. لعل سهير كانت تسمع دفاعه وهو يقنع أمه، ولعله غالى فى الدفاع.. وسهير تظن أننى موظف - مثل شقيقها فى الشركة.. وهى تعلم أننا نذاكر الثانوية العامة.. فقد اعتقدت بأن كثيراً ممن يحصلون على دبلوم التجارة.. يدرسون الثانوية العامة للوصول إلى

الجامعة، والميزة التى تميز هذه الفئة، أنهم يكونون فى حالة أفضل من الطلاب الذين ينتظرون مصروف جيبهم من أهاليهم، أنهم طلاب، لهم دخلهم من وظائفهم، وينتظر ترقيتهم إذا ما حصلوا على المؤهل العالى.

وكنت أعلم الكثير عن أكاذيب فؤاد البيضاء، فلم أشأ أن أصحح شيئا يكون قد أكد عليه وثبته فى أذهان أهله.

وجاء اثنان من إخوته الصغار.. صبية، تلاميذ فى المدارس الابتدائية.. سلما علىّ، وفيما يبدو كنت أشغل حجرتهم، فقد خرجا سويا، كما دخلا سويا.. وجاءت أم فؤاد لتسلم علىّ، عندما دخلت الغرفة اعتقدت لأول وهلة أنها خواجاية جريجية «قشلانة» وذلك من ملامحها الخارجية ووجهها الأبيض الذى يميل إلى الاصفرار وشفتيها الرهيفتين، ولكنها إذا ما تمادت فى الترحيب بى على طريقة أهل كرموز الذى زارهم النبى – فقد شعرت بشىء من الونس – وأنا الذى فكرت مرارا.. بأن أخذ بعضى – وأفلت بأى عذر – حتى لا أسبب لصديقى مشكلة فى حياته التى لم يكن قابضا على زمامها.. أبلغتنى أم فؤاد أن أولاد خالات.. فؤاد.. جميعهم تقريبا فى التعليم الجامعى، ومنهم من تخرج وتسلم وظائف مرموقة، وهى التى لها معارف وأقارب ونسائب من علية القوم، سوف يوظفون فؤاد فى أى وظيفة يتطلع إليها، لو أنه – اتشطر – وحصل على المؤهل المناسب – ثم أحضرت سهير بإشارة من أمها، ألبوم صور العائلة، حتى أشاهد صورا لعدد من الأقارب التى تحدثنى عنهم، وأشاهد فؤاد – الغالى – وهو فى جميع المراحل، منذ كان طفلا رضيعا عاريا.

وكانت سهير .. فى زحمة الترحيب، تضع أصبعها على صورها.. وهى فى المايوه.. وخلفها البحر، وطرفا من حدائق سراية المنتزه .

وعندما وجدتنى أتأمل صورها، قالت :

– كنت تخينة حبتين.. دى الوقت .. شوف .. ضبطت نفسى إزاى ووضعت يديها عند خصرها تضغط عليه.. حتى بدا هضيما بين كتلتين.. وانشغل ذهنى بحساب عمرها..

لابد وأنها رسبت مرة أو مرتين.. مثلها يكون قد تخرج بالمؤهل المتوسط منذ عامين.

وانفردت بى أثناء توضيب السفرة – فأسقطت فى يدى – ورقة من كراسة – كتبت فيها شيئا، وطبقتها عدة تطبيقات حتى صارت أكبر من طابع البريد قليلاً.

وأم فؤاد.. قدمت العديد من الاعتذارات وهى تدعونى للسفرة.. بأن «الحق» على فؤاد الذى كان يجب أن يخطرهم بحضورى، ومع ذلك – فأنت فى غلاوة فؤاد يا أستاذ عادل..

وأنا أغمغم : «ربنا يديم المعروف».

فأتبين أن رسالة سهير فى يدى ، أدسها فى جيب بنطلونى، والسهتانة الشقية تسألنى بعينيها – إن كنت قرأت رسالتها – هززت رأسى نفيا، أتت بأطباق أخرى لتضيفها على السفرة المزحومة بالأطباق والأكواب والملاعق وفى وسطها.. حلة المكرونة .. ولكل طبق.. أصبعين كفتة لحم بالأرز.. مقلية جافة.. وسرفيس به سلاطة خيار وطماطم.

وهمست - المجنونة - فى أذنى - «هل ستحضر ؟!»

ارتبكت، وانشغلت برفع طبقى لاستقبال المكرونة فيه - وأم فؤاد تغرف للجميع، وعلى طرف الطبق وضعت قليلا من «السلاطة» وبجانبها الإصبعين كفتة أشبه بقلم رصاص قصير مقسوم إلى نصفين.. ولم يكن هناك خبز.. أو أى شىء آخر..

ولا حتى كلمات التشجيع التى تقولها أمى للضيوف لإزالة حرجهم.

٩

□ يصدمنى الفراغ تلو الفراغ.. كان ذلك على أثر اختفاء الرفاق الذين كانوا يجعلون من اللقاءات.. مغامرة - لذا وجدت نفسى لا أفرغ من الحركة - التى أراها - بحساب الآمال المرتقبة - بلا جدوى!

صارت الأفعال تأتى على غير المتوقع، وأنا أنساق من فعل إلى فعل، كمن ينساب مع تيار عام يدفع به من أعلى إلى أسفل، دون أى دلالات على الإدراك والفهم، مع أن خيالى لم يكن عاجزا عن الانطلاق.. ومع ذلك شعرت بأننى أسلم نفسى كلية فى يد طفل عابث، يستطيع تدميرى، ويستطيع أن يدق عنقى على بلاط الغرفة العارى.. كما أنه بعد محاولة التحطيم التى ليس لها معنى.. سيحتضننى فى رفق ويلثمنى ويناغينى!

ولكنه كطفل، لا يستقر على حال.

وسهير المندفعة، لا تدرى شيئا عن تدشينى المبكر فى كومة من قصاصات الورق.. وعلى صوت الآلات، وتحت وقع مغامرة الكشف.

والفضيحة ذات الجلاجل، يكون اللهاث والعناق والوصول السريع للغرض من أقصر السبل، له نكهته الخاصة، ذكراها تجعل القلب يخفق والأنفاس تتسارع.. كما أنها لا تدرى شيئا عن «مغامراتى»

التى أفعلها وأتناساها، والأيام الثلاثة التى أمضيتها مع كوثر أنفوشى بمرسى مطروح.

أطلق معها الرصاص فى كافة الاتجاهات.

سهير تظن أنها تتعامل مع فتى من الضواحى والأحياء الشعبية، تتخذ من الفارق الاجتماعى بين حى باكوس الشعبى - ومنطقة المندرة الملاصقة لسور قصر الخديوى وحدائقه الغناء.. وأنها ستتلاعب بشخص ريفى «بهرته أضواء المدينة» لا تدرى الساذجة أننى أجيد التمثيل، وأعرف متى أتلعثم، ومتى أحيط بها حتى تسير فى الطريق الذى أكون قد حددته سلفا - تظن أنها تقودنى إلى التحضر والمدنية، والكشف عن قلب الإسكندرية الذهبى، أنا الذى أعيش تحت أقدام المدينة المتفرنجة «ورقتها المطوية»، منحتنى فيها موعدا سيكون الساعة الخامسة يوم الخميس، علىّ أن ألتقطها من فوق السور الذى يرفع عليه سعد زغلول ذقنه ترفعا، وهو يقدم ساقا ويؤخر أخرى، يوحى للناظر إلى تمثاله أنه يسير فى اتجاه معين، وسهير ستكون بالنسبة للأهل والوالد المتشدد فى حفل خطوبة صديقه لها، وجدت نفسى أذهب فى نفس الموعد، دعكت أسنانى، وارتديت قميص المناسبات، مع البنطلون الهيلد.. ولمعت حذائى حتى جعلته مصقولا.. لكن الجورب اللعين كان ممزقا عند الكعب، سحبته إلى الأمام قليلا فلم يكن هناك وقت لتخيطه أمى، وتعطرت، وأحصيت نقودى، واحتياطيا سحبت خمسة جنيهات من المدخرات، وذهبت إليها. كانت فى انتظارى، ترتدى ثوبا «دوبل كلوش» يصلح لأن يكون ثوبا للخطوبة، وزواق وجهها قد رفع من عمرها عدة أعوام أخرى،

كما أننى لاحظت نضوجها وأنوثتها.

نضوج جعل ضميرى يغط فى النعاس ويتآلف مع ذلك القرار المخادع، الذى صغته فى سؤال «ما الذى يمنعك من التقرب إليها بالزواج.. أنت إذا تزوجت فلن تتزوج من بنات شركة الحلويات ووالدك صعيدى له رأيه المتحجر فى العاملات، فى ظنه أنهن ينزلن سوق النخاسة للبيع.. أما سهير حسين فإنها شيء مختلف..».

وإذا ما شاهدتها واندفعت إليها.. كادت أن ترتمى فى أحضانى غير آبهة بزحام رصيف الميناء الشرقية.. احتضنت يديها بكفى فى ضغطات تعبر عن شوقى الشديد.. ومشينا متجاورين نتجاذب أطراف الحديث الذى كان يتعثر بيننا، كطفل يتعلم المشى، يسقط ويقوم.. ويحاول فى إصرار، وعندما نظرت فى الساعة،، قلت لها :

– موعد عودتك..؟

– بالكثير أكون فى البيت الساعة الثامنة.

أمسكت بكفها وعبرت بها طريق السيارات، واتجهت بها إلى سينما فريال، إنها السينما التى كنت أشاهد فيها العشاق فى الصفوف الخلفية.. ولما كنت أقف بها أمام الأفيشات والصور.. أدركت ما أنتويه، اتجهت إلى شباك قطع البطاقات، لم تعارض، فقط اقتربت منى وقالت :

– أخشى أن نتأخر.

– نطلع فى أى وقت تشائين، العرض سيكون من السادسة إلى التاسعة.

– لا تنسى أن بيتى فى آخر الدنيا..

– تاكسى من شارع الكورنيش لن يستغرق نصف ساعة.

ودخلنا السينما، وجلست بها بين العشاق، الذين كانوا جادين وجامدين، كانت السينما مضاءة تعزف الألحان والأغانى وإذا ما أظلمت، كل اثنين صارا فى واحد.. وبدأت محاولاتى، الظلام يجعلنى أكثر جرأة، كما أنه يخفف عنها الحرج.. إنها الضمات الأولى، والقبلة الأولى.

اكتشفت أن سهير.. شىء مختلف بالفعل، شىء له رونق خاص، وفى الاقتراب منها ذوبان فيها.. وأن كل تجاربى الماضية، يمكن أن تزول وتتلاشى أمام رقة اللمسات، وتلك الاستكانة المبهرة فى أحضانى، ترفعنى إلى طبقات عليا من السماء، أجد نفسى هائما فى ملكوت خاص، مولود من جديد، أمام اختيار.. لا قبله ولا بعده، ما مضى، مجرد سراب، أنهل من لبن وخمر.. فأتشكل على صورة ملاك له أجنحة، أسعدنى ما استمتعت به، وأسعدنى أنها لم تجعلنى أتمادى مع كنوزها.. وجدت نفسى أتكور وأتناهى فى الصغر حتى تضمنى علبة هدايا قطيفة حمراء.. أقدمها إليها، فيها روحى، إذا لم تتسلمها فورا.. سألقى بها فى سلة المهملات..!

وإذا ما قطعنا عدة فصول من الفيلم العربى.. وفيه عماد حمدى الضابط يعشق مديحة يسرى التى سترتبك وهو يعانى من آلام فى بطنه، فقد مالت علىّ وقالت :

– نروّح بقى.

– لسه بدرى.

– لا .. كده كفاية.

– نحن لم نتعرف على بعضنا.

– لا .. أنت شقى قوى.. وكفاية كده.

– سهير .. أشوفك تانى؟

– طبعا، لكن لن أدخل معك السينما.

– وإذا خطبتك؟

لاذت بالصمت، وفى التاكسى إلتفتت إلىّ وقالت :

– أنت بتتكلم جد..؟

– فى الحقيقة كل شىء جد يبدأ هزار.. زى الحلم اللى بقى واقع..

ولكنها انصرفت إلى النظر من نافذة السيارة، كانت تهرب بوجهها بعيدا، قلت :

– أعتبر عرضى مرفوض؟

تنهدت وحركت يديها إلى أعلى ثم إلى أسفل، وعادت ووسدتهما حجرها، وأخذت تضغط على حقيبة يدها الصغيرة – كنت أشاهد ترددها، وأنا لا أبالى حقيقة إذا ما رفضت، فلم أكن مستعدا تماما للزواج، ولكننى وجدت نفسى أسلك هذا الطريق، إرضاء لإحساس داخلى، لابد وأن أضفى على ما حدث شيئا من الشرعية، أو يكون نتيجة لأسباب، وكأننا فى حالة اختبار، قد ننكص عنه، قالت :

– المشكلة أن أمى تحتجزنى لابن خالتى.

– من الذين كانت تتباهى بهم ؟

هزت رأسها، وزمت شفتيها، كانت قد أخرجت المرآة وأزالت أحمر الشفاة، أزالت طبقة منه، وكنت قد لاحظت أن منديلى قد

احتفظ بآثاره التى انتقلت على شفتى، قالت سهير :

– أنا سعيدة أنك عرضت علىّ هذا العرض، إذا لم تعرض علىّ هذا العرض، حتى ولو لم يتم، كنت سأشعر بأنى ارتكبت حماقة، وكنت سأتنحى عن طريقك، لن ترانى ولن آراك حتى لو عسكرت فى بيتنا، لكن الآن المسألة اختلفت.. أنا سعيدة بعرضك هذا.

قلت : سأكون سعيد أكثر لو قبلت .

قالت : يظل قبولى فى طى الكتمان.

قلت : ذلك يكون أفضل.

قالت : ولا تتشاقى..

ووجدت فى نفسى رغبة شديدة فى تقبيلها، وربما كانت تفكر فى نفس الموضوع، فإن أصابع يدينا كانت تتشابك، ولا أجرؤ على أن ألمس أى جزء من جسمها، وهى التى انزعجت، عندما منحتنى شفتيها، لم تكن تريد التعامل مع أى جزء آخر إلا هما.

كان السائق ينظر إلينا فى المرآة الداخلية.. وكان يظن أننا فى مرحلة الخطوبة.

وقبل الوصول إلى دكان والدها بمسافة قصيرة، أوقفنا التاكسى ونزلت :

– باى يا عادل..

– باى يا سوسو..

وعاد بى التاكسى إلى شاطىء جليم.. نزلت ومشيت فى الشوارع الهادئة قاصداً باكوس، أغنى «صافينى مرة»، «وعلى قد الشوق اللى فى عيونى يا جميل سلم».

* * *

للحب لغته الخاصة.. الظروف العائلية والبيئية عطلت إدراكى ومعرفتى بلغة الحب الحقيقية.. ما كنت أمارسه لم يكن حبا، كانت التهتهة والثأثأة التى تسبق اللغة السامية، لغة الحب تبدأ من بعد السحاب، وتمتد فى الأفق البعيد تتضافر مع ألوان قوس قزح، لحروف الحب أجنحة ملائكية.

لغة تبدأ عالية، تستطيع أن تتفكك من الأرض إلى السماء، تجعلك تنسى النهايات ولا تتذكر إلا البدايات، ومع أنها لغة كالغيب مسطورة فى الأذهان ومختلطة بالأساطير إلا أنها مشحونة برفض الواقع الكسيح، تعلو على اللغة الأرضية التى تهتم بالاحتياجات وترتيب الضروريات، لعل المفاجأة التى أدهشتنى ، أن الحب مثل مرحلة الطفولة، مهما عبرت عليها وحاولت أن تتناساها، ستجد نفسك تعود طفلا، يلعب بلعبة، أو يفعل أشياء تقع جميعها تحت بند اللعب.

كان فى اعتقادى أننى عبرت على فترة، يلهو فيها قلبى بالحب الذى كنت أراه تافها، كيف يذوب فتى فى فتاة، أو تذوب فتاة فى فتى، فتراه بعين الحب العمياء، كل شىء فى حياتها، ويراها بنفس العين، خُلق من أجلها.

لغة الاحتياجات التى جربتها، لغة كسيحة، ليس لها أجنحة، ليس لها ملاكها الحارس، لذلك فهى، عار يجب أن نتخلص منه بالنسيان، أن لا ترتبط به حتى لا ينزل بك إلى سابع أرض، أما الحب.. فإنه لغة الصعود.. البنت سهير.. وقد اكتسبت ألاعيب حواء – تممت لقاءات أخرى معى، كانت فيها متألقة، وجميلة بصورة مذهلة.

فى اللقاءات الأولى، جعلتنى أتحدث عن نفسى كثيرا، ونحن نجلس على ترابيزة متقدمة إلى مشاهدة بانوراما البحر والغروب خلف النافذة الكبيرة بكازينو الفردوس.

وفى اللقاءات الأخيرة، بنفس المكان، تحدثت عن نفسها، وعائلتها، وزملائها وأمنياتها، وضمنت أحاديثها - رغبتها فى أن تمنح فرصة، تسوى فيها أمورها .

كما أننى لابد وأن أستوثق أن عرضى، جاد، وأستطيع تحمل المطالب التى ستغالى فيها أمها - إذا ما خالفت رغبتها بالفعل وتمسكت بى!

* * *

صرت أنظر إلى فؤاد - بعد توثيق علاقتى بشقيقته - نظرة الذى يأمل فى مساعدته يوما، واعتاد فؤاد أن يكون على علم ببرنامجى اليومى، حتى ولو لم أقابله، وسهير، جملت صورته عندى، فهى تتسم بالبساطة والروعة، وهو لا يزال يرى أن «العمال» - فى مصنعنا على الأقل - جهلاء وأغبياء ووسخين..!

«شوف العمال فى أوروبا يا عادل. شكلهم ولبسهم، وبيوتهم، وكل عامل عنده سيارة، شوف منظرهم فى الأفلام، العامل لابس البدلة الجينز التى نتنزه بها، تجده يشتغل أمام زراير.. وكل شىء حوله هناك بالزراير، العامل عامل.. والفلاح فلاح.. لكن هنا.. لا تعرفهم عمال أم فلاحين.. خبثاء جداً يا عادل..!».

وفؤاد يحلم بأن يغمض عينيه ويفتحهما فيجد نفسه أحد عمال أوروبا.. أما هنا فلا أقل من موظف كبير!.

أدفع بالمثل الشعبي – «اطبخي يا جارية.. كلف يا سيدى».

وأفتح معه الموضوع الذى يضيق به – الاقتصاد، الكشف، الاستعمار – أشياء كثيرة أوصلت أوروبا إلى السيادة والحياة الناعمة والشغل بالأزرار..!

وعندما يجد أننى أسبح به فى مجال لا يجيد فيه السباحة، يتعلق برقبتى ويسارع بالقفز خارج المناقشة، مدعيا، أننى أقدم له الألغاز والأحاجى التى يرى أنها الطريق إلى مزيد من الشقاء، ويضرب لى المثل بالفرق الشاسع بين الأمريكى والسوفيتى.. يقدم لى مليونيرا أمريكيا أمام عامل سوفيتى فى أحد المزارع أو المصانع.. والمقارنة ظالمة، فالمليونير يعنى ثروة آلاف الفلاحين، ويعتقد أننى أدمن الكلام فى الاقتصاد والسياسة، وهو يضيق بهذين الموضوعين بالذات، فأسكت، إكراما لسهير، الموضوعية جداً، والعملية جدا، والتى لا تحلم إلا بما تقدر على تنفيذه.

فى نفس الموعد المضروب ، وقد جهزت لكل موعد.. موضوعا، يحمل متاعبه نيابة عنها وعنى.

ومع أن الدراسة الثانوية – بالنسبة للقسم الأدبى، كانت مشحونة بالتاريخ والجغرافيا والمنطق والفلسفة، والمدارس المذهبية، فإن ذهن فؤاد يلقط ويحفظ ويستطيع أن يردد ما يلقطه.. كالببغاء، دون فهم، أنه يحلق فوق كل ما هو على الأرض الموحلة، والعمل فى المصنع – خاصة بعد أن تم نقله ليحل محل «بشارة أفندى» وقد أصيب بالإرهاق الشديد، والإغماءات المتكررة، فتم نقله إلى المستشفى، تبين أن قلب بشارة أفندى يعانى متاعبا ولابد أن يخضع لعلاج طويل،

هنا قام الأسطى عبد الغفار بدفع فؤاد مكانه. واقترح على الخواجة تودرى – الكومندا – بأن يحل فؤاد محل بشارة، فإذا كان بشارة أفندى قد أتقن مجموعة أعمال إدارية بالصلاحية، وادعاء أن لديه مؤهلا من مدرسة فرنسية خاصة، فإن فؤاد حسين لديه شهادة الإعدادية طازجة، وشهادتين بالنقل من السنة الأولى إلى الثانية – ومن الثانية إلى الثالثة الثانوية – وذلك من المدرسة المرقصية الثانوية المسائية التى وقع عليها اختيارى – لكى ننتسب إليها..

ومسيو ألبير – سكرتير المدرسة المرقصية – أكد، بأن فصول المدرسة لابد وأن تحتوى على عدد من المسلمين، يتم التساهل فى دفع أقساط تعليمهم – هكذا أوضح لى محمود مراد – صديقى الذى استكمل تعليمه فى المدرسة المرقصية النهارية بعد نقل والده واستقراره بالإسكندرية، وإقامته على ناصية شارعنا، وهو الذى عرفنى بالمدرسة، والطريق إليها، «ومسيو ألبير» الذى كان يشبه فريد شوقى، حتى عندما يرفع حاجبا وينزل بالآخر.

واعتدت مع فؤاد أن ندفع القسط الأول من المصاريف – التى لا تتجاوز سبعة عشر جنيها – أما القسط الثانى والذى يستحق قبل أداء الامتحان فقد كان «ألبير» – إذا ما تقدمنا له بطلب الإعفاء – يصحبنا إلى مكتب «الأب» ناظر المدرسة، وهو فى ملابس الرهبان السوداء، يوجه لنا عددا من الأسئلة مستفسراً عن أخواتنا وأهالينا وظروفنا الاجتماعية، وكنت مع فؤاد.. نغالى مغالاة معقولة، يمكن تصديقها، بأن نضاعف عدد أخواتنا، ونخصم نصف دخل أهلينا.. فنكسب عطف الرجل الكبير، الذى يطرق قليلا، ثم يرفع وجهه إلى

مسيو ألبير ويقول :

– يتم الإعفاء من باقى المصاريف يا مسيو ألبير، على أن تخاطب أهاليهم بقرار الإعفاء فى خطاب مسجل.

نشكره، ونخرج مع مسيو ألبير، لنحصل منه على الخطابين – ونحن نقسم له (بالختمة) أننا سنوصلها لأهلينا.

وقد تم ذلك فى السنة الأولى بصعوبة، وتم بسهولة أكثر فى السنة الثانية، أما السنة الثالثة، فقد تم تلقائيا، وكان من الطبيعى أن نعافى من القسط الثانى – وفى كل مرة، كنت «أتفاخر» بما يحدث من إعفاءات لنا بواسطة ألبير و«أبونا» مدير المدرسة المرقصية.

لكن فؤاد كان يخجل من ذكر ذلك، ويصور الإعفاء وكأنه يحدث لى وحدى، دونه.

والعمل الكتابى الذى شغله فؤاد فى إدارة المصنع.. شغله كثيرا عن متابعة الدراسة فى المدرسة المسائية، وبشارة أفندى.. فيما يبدو كان يقوم بالعديد من الأعمال الإدارية.. نصف الأعمال الإدارية كانت تقع على كاهله، والنصف الآخر كان من نصيب جريس أفندى.

وكان تودرى الكوماندا، يتشكك فى مقدرة فؤاد حسين للقيام بأعباء الوظيفة، وعبد الغفار الكومندا الشعبى – يؤكد له بأن فؤاد ولد بصحته وممتلىء بالطاقة، وإذا ما قام جريس أفندى بتدريبه فسوف يثبت «شطارته» ولعل جريس أفندى كان على خلاف من طريقة بشارة أفندى فى أداء أعماله واظهار بأن لولاه ما سارت الإدارة سيرها الحسن، فقد درب فؤاد حسين على كثير من الأعمال فى فترة قصيرة، وجعله يثبت أنه كفؤ للقيام بأعمال بشارة أفندى

المريض بالقلب بما يعنى أن بشارة أفندى – ولا حاجة له..!

وكان ذلك على حساب دراسته، التى كانت – بالنسبة له – تعتمد على النقل والحفظ ، وضرورة سماعه بأذنه ما يقال، فهو يكره القراءة ولا يصبر عليها، بل إن القراءة التى كنت أدمنها، كانت تمثل ضرة له، يحاربها بكل الوسائل، حتى إذا جاء على ميزانيته وأنفق على.. نزهات لنا.. لم تكن فى الحسبان.. فهو كلما سألنى أين اختفى؟ يعرف أننى اقرأ.. لابد وأن يقترح ما يشغلنى به معه، كنت أذهب إلى دور السينما أو إلى زيارة أصدقاء، أو حتى الجلوس فى المقاهى لتدخين الشيشة، ولعله يظن بأننى إذا ما عدت إلى بيتى سأنام سطيحة، ولا يعرف بأننى لا أنام إلا إذا قرأت، ولا أنام إلا إذا تداخلت السطور فى السطور وضاعت منى الكلمات.

هنا فقط أفرد جسمى وأفصل الضوء، وأجذب على رأسى الغطاء وأنام.

الوظيفة التى شغلها فؤاد، كان يشغلها (كذبا) منذ أن حل بالمصنع، انتظرها ما يقرب من ثلاثة أعوام.. وعندما شغلها لم يكن بقادر على أن يعبر عن فرحته أمام أهله بها – ماذا سيقول لهم؟ هل يقول لهم كنت طوال ثلاثة أعوام عاملا فى أقسام تصنيع الورق والطباعة، وهو الذى جعلنى أكذب معه، وأدعى أنا الآخر بأننى أشغل وظيفة بالمكتب المجاور له، ولما كشفوا فرحته صدفة، ادعى أن ترقية كانت من نصيبه – وأردف – :

«اسألوا عادل مرعى» والله العظيم !

١٠

□ سهير ، كانت لعبة، فتحولت إلى هدف، كانت صدفة، تحولت إلى قدر، البنت الشقية استولت على قلبى وشغلت عقلى، وتمحورت حياتى حولها، لا أدرى كيف استدار كل شىء فى حياتى لينجذب إليها، وأنا الذى كنت أظن أنها حالة وتزول، كنزلة البرد - فإذا بها مرضى المزمن، إذا ما فتشت فى أخيلتى وجدتها، خيالا قديما، رسمته منذ زمن الصبا والأحلام، جزء من حزن فاتن حمامة، وارتباك ماجدة، وسحر مديحة يسرى، وشقاوة شادية، ودلال ميمى شكيب إذ كان فى لسانها الراء .. غيناً.

وإذا ما حاصرت جموح خيالى، والابن يقيس زوجته على طاعة أمه لأبيه - وجدت أنها تقلد أمها التى تدبر ما يتعثر على يد الوالد - هنا صارت أمنيتى الدائمة، التى تمكنت منى وشكلتنى من جديد، أمنية تتلألأ كعروس الأحلام الدفينة، تقف على نافذة حياتى، ترقص وحولها فيض من الأضواء، فيض نور يبدد الظلام على مسافات طويلة، وإن كان فى رقصاتها رعونة الجيل واندفاعه، تحثنى على أن أحسم الأمر، وألقى بأمنيتى على رءوس الأشهاد، ترى أن أمنيتى ستستجيب لها السماء المفتوحة على مصراعيها.

ولسانى عقد، ولم ينطق بأى قول، إذ أن جسمى كان قد تحول

إلى أثير يشكل أمنية وحيدة تمخر فى عباب من الخوف، أخشى أن تكون تطلعاتها أكبر من إمكانياتى، أن تكون الشقية، إسكندرانية جداً، ملتزمة بخطة بنات جيلها، البحث عن الزوج الذى يشقى ويدبر ثمن المطالب، تلك المطالب التى ستجعلنى أدور فى الدائرة المغلقة وقد علقت فى نير الساقية، تلهب ظهرى لأواصل الدوران وإرواء حقلها الجاف الذى لا يرتوى ، لذلك لم أندفع، وجدت نفسى أتمهل، ولتنتظر أبواب السماء مفتوحة لما قدر لى، أو فلتغلق.. لموعد آخر.. فالوقت بالنسبة لى كان لا يزال ضيقا على خطواتى فى الاتجاه المأمول، وسهير قامت بإفساد كل المحاولات التى تقوم بها أمها – الأم التى أقصى أمنياتها أن ترى ابنتها فى عصمة رجل يحمل عنها.. هذا الهم الثقيل..!!

وسهير انحصر همها فى حثى على أن أتقدم لخطبتها حتى تتوقف المحاولات العائلية، وهى تحسب كل شىء بحسابات العواطف، تنحى العقل جانبا، ولا تستطيع تفسير ما بين السطور، بينما انحصر همى فى تحقيق خطوات أولية قبل الخطوة العظمى، خطوة للوظيفة، وخطوة الحصول على الشهادة الجامعية.

وعليها أن تقنع والديها بى – وأنا أقنع صديقى فؤاد بخطوتى فى اتجاه الانصهار فى عائلته – لابد أن أجعله كشافى ومقدمة قواتى.

لكن الرياح اللعينة، كانت كالعادة، تأتى من الاتجاه المضاد لمسيرة سفن آمالى.

وقع الشقاق صريحا بينى وبين فؤاد حسين، وصرت بالنسبة له الصديق اللدود، الذى يقع وسطا بين نقيضين، لا هو عدو صريح ولا

* * *

فـؤاد وقـد ورث وظـائف بشـارة أفندى، كـان لابد وأن يتـجـاهل الوقت ، ونظام الورادى، وأن يعمل كما كان يعمل بشارة أفندى من الصباح.. حتى المساء.. وأيام إعداد المرتبات يسهر حتى نهاية موعد الوردية الثانية، وفؤاد بوصوله إلى تلك الوظيفة الكتابية المأمولة، كمن قطع المسافة الطويلة عدوا، واجتاز خط النهاية، سقط هناك، يقوم ويحيى الجماهير، لكنه لا يتحرك من مكانه، والدراسة بالنسبة له، كانت وسيلة لغاية.. وفى ظنه أنه وصل لغايته، كما أن قلة عدد الموظفين المعتاد – رتب للاثنين أن يعملا أعمالا إدارية عديدة، تتطلب من فؤاد أن يهدأ وينصرف تماما ليتعلم المزيد من جريس أفندى قبل أن ينقلب عليه.

وقد صار فؤاد.. يعمل بملابسه التى يأتى بها من بيته، وكان لابد وأن يخلص نفسه من الطبقة التى لم يندمج فيها، أن يقوم بوضع نفسه فى إطار جديد، وذلك يتطلب زمنا من العزلة.

فترك فؤاد كل الأعمال التى تتصل بالعمال فى اختصاص جريس أفندى، أما هو فيقوم بالأعمال التى لا تتطلب منه أن يلتقى بعامل واحد طوال يوم العمل، وهو الذى كان يتمنى لو أن الأرض انشقت وابتلعته اذا ما تصادف وقابله أحد العمال خارج المصنع، واندفع يسلم عليه، فى عفوية، كان يتعمد أن يجعل الحوار منولوجا يلقيه العامل وينصرف، وهو صامت يتشاغل عنه.

وكان موعد امتحان الثانوية العامة سيحل بعد ثلاثة شهور تقريبا،

اعتقد فؤاد أنه فى شهر واحد يستوعب أعماله الجديدة، وقبل الامتحان يحصل على أسبوعين إجازة للمراجعة، ويجتاز الامتحان، مستخدما حافظته الذهنية التى تحفظ الأغانى الطويلة لأم كلثوم، ومحمد عبد الوهاب، وعبد الحليم حافظ، فهو يسمع أغنية أم كلثوم فى الليل.. يستطيع أن يستذكر مقاطعها باللحن المصاحب - فى اليوم الثانى - وكانت هذه الخاصية هى التى اعتمد عليها فى امتحان الإعدادية، كنت قد جعلت منه سبورة أحاول فهم الدروس عليها، وكان يحفظها كما وردت فى الكتب، لكن فيما يبدو.. كانت الدراسة فى الثانوية العامة - تقرر مساحة للتفكير والمقارنة وإظهار رأى الدارس، وفهمه للأحداث والمسائل والمشاكل، وصار يعبر عن ندمه بأنه زاملنى فى القسم الأدبى.. لكنه لم يفقد ثقته فى نفسه، كل ما هو مطلوب أن يقوم شخص بفهم الدرس وتلخيصه ووضعه فى برشامة وتقديمها له ليبتلعها بقليل من السوائل، ذاكرته الحديدية تمثل لى مشكلة.. كنت فى بداية العام إلى منتصفه أفهم المواد بنسبة متوسطة تزداد كلما قلبت فيها، وذلك لأنى لا أركز على مادة معينة - أجعل كل المواد فى مستوى واحد، لكن فؤاد كان إذا ركز على مادة حفظها وأجادها، وذلك يتطلب منه مجهود يتجاهل فيه المواد الأخرى.. وحتى يضع نفسه فى المقدمة فهو يسألنى أسئلة محددة، يعرف إجاباتها النموذجية لا أجيب عليها مثله، فينتشى ويزهو بأنه سيمنحنى الحل النموذجى، وأستمع إليه، أجده كمن يقرأ فى كتاب الوزارة، أندهش، وبعض الوقت ظننت بأنه سيحصل على المجموع الذى سيسبقنى به، وهو ما حدث فى الإعدادية، كان مجموعه يفوق

مجموعي بدرجتين، مع أني كنت معلمه، في معظم المواد، وكنت أدربه على مناقشاتها وحلها.. ولم يعد يأتي إلى المدرسة، وكنت أنتظره ليأتي إلى يوماً أو يومين في الأسبوع لأطلعه على ما حصلناه.

لكن عمله كان يتشعب ويعوقه.. عندما كنت أحصل على الإجازة التي سأخصصها للمراجعة، وقد حددتها بأربعة أسابيع وجدت «المدير» يخفضها إلى أسبوعين، مع أن الخواجة بندليس كان قد وافق على طلب الإجازة، ولما كنت قد رتبت أموري على الأسابيع الأربعة، ذهبت للقاء الخواجة تودري وطلبت منه تبريرا لتخفيض الإجازة لأسبوعين، أبلغني بأنني سأحصل على أكثر من شهرين أجازة متواصلة - أربعة أسابيع قبل الامتحان وثلاثة أسابيع للامتحان.. وذلك يكفي، وأبلغني أنه بالرجوع إلى فؤاد حسين الذي سيمتحن معي - أبلغه بأنه لن يحصل إلا على أسبوع واحد قبل أداء الامتحان وفي ذلك الكفاية.

الآن فؤاد بالإدارة، في لقاء دائم مع الخواجة تودري، بدلا من أن يسهل لي شئوني، صار يعقدها، ربما يظن أنني سألجأ إليه وأنسق معه، بينما كنت أرى أنه هو الذي في حاجة إليّ، وعليه أن يسعى إلي كما اعتدت منه، والخواجة بندليس حل لي مشكلة الأسبوعين المحذوفين، أحضر وأوقع في الحضور ثم يرسلني إلى مأموريات عمل، شراء بعض المواد الخاصة بلوازم التصوير.. أذهب ولا أعود، أتوجه إلى بيتي وأنفرد بنفسي في الحجرة التي - ناضلت - حتى صارت لي وحدي، على وعد بالتخلي عنها بعد أداء امتحان الثانوية العامة.. لقد بدأ المعسكر - ولابد من مراجعة ما درسته - أن أقرأ

الكتب بدقة، واستخدم القلم فى الهوامش، وأعود وأجمع هذه الهوامش فى ملخصات ، أى شىء أكتبه ليس من السهل نسيانه - أى شىء أفهمه أستطيع أن أعبر عنه بأسلوبى، لقد جربت فى سنوات النقل أن لا «أغش» لاختبار قدراتى الحقيقية على الاستيعاب، وكنت أنجح بتقدير متوسط، والذين يغشون ينجحون بتقدير أعلى، لكن ذلك سيكون على حساب الامتحان النهائى العسير.. ولجانه التى تكون فى يقظة.. تهدد وتتوعد.

وإذا ما تفرغ فؤاد.. جاء ليعرض علىّ أن أذاكر معه فى بيته، نسهر يوميا ونحث بعضنا.. كما كنا نفعل فى سنوات النقل.

كنت خلال الشهر الأخير قد انتهيت من المراجعة الأولى.. وعدت أركز على ما كنت أظن أنه مقلقلا فى ذهنى، بينما فؤاد كان سيبدأ من البداية، فأبلغته بأن المواد التى أشعر بأننى هضمتها لن أبدد فيها وقتى، ومراجعاتى ستكون جزئية، مع حفظ عدد من القصائد، وكما اعتدت سأتوقف تماما عن المذاكرة قبل الامتحان بثلاثة أيام.. وأعطى لذهنى فرصة للراحة، بدا أننا غير متفقين، ومع ذلك وعدته بأنه إذا ما ذاكر الإنجليزى أو الفرنساوى فبإمكانى الحضور إليه، وكان له قريب يدرس له اللغة الإنجليزية اتفقت أمه معه على أن يأتيه للمراجعة.. «مجانا» قال :

- يعنى أبلغه بأنك ستأخذ درس معى عنده.

- بالفلوس ؟

- نعم بالفلوس، الحصة بعشرة جنيهات، والدرس فى بيته.

قلت : لم أكن أعلم بأنه يتقاضى أجراً، فى هذه الحالة سأعتمد

على نفسي، وكنت على ثقة بأن - قريبه - سيعطيه دروس المراجعة النهائية مجانا، وكأنه يرد لي اللطمة، فقد أراد مني مساعدته في كافة المواد والقراءة معه من بدايتها، والوقت لم يكن فيه متسع، وتركيزي صار على ما أجد صعوبة في فهمه.

واختلفت وسائلنا، فافترقنا، ولم نلتق إلا في لجنة الامتحان التي تضم كافة المتقدمين من منازلهم، ويتبعون المدرسة المرقصية الثانوية المسائية، كان واثقا من نفسه، وكان قد أبلغني بأن أمه جندت كافة المتعلمين من أولاد خالاته - وأنه أخذ - البرشام - في كافة المواد - متفائلا - بينما كنت أنا مضطربا، لا أستطيع استعادة شيء مع أنني منحت نفسي راحة يومين قبل الامتحان، وفؤاد إذا ما أمسك بطرف شيء - يسميه المفتاح - أجده يكر ما بعده وكأنه أمسك بطرف الخيط الملفوف على بكرة، وبدون مناسبة قال لي :

- تراهنِ على المجموع، جنيه واحد منك، وخمسة جنيهات مني على من يحصل على مجموع أكبر.

وافقت وفي ظني أنني خاسر الجنيه، فهو الذي تميز عني في الإعدادية بدرجتين، وأنا الذي كنت أقوم بدور أستاذه، ومددت له يدي لنتفق - أمسك بها وقال : أقسم على ذلك.

قلت : ولماذا لا تقسم أنت؟

قال : وشرف بابا ..

ضحكت وقلت اللازمة التي كان يرددها فريد شوقي في أفلامه التي تبهر رواد سينما الدرجة الثالثة: وشرف أمي..

إذ كان فريد شوقي يقوم بدور الشرير النمطي، يحلف بشرف أمه

ولا يعمل به مطلقا!!

* * *

ضبط فؤاد في اليوم الثالث للامتحان، يغش من ملخص كتبه على مسطرة خشب، كان ذلك في مادة الجغرافيا، والمراقب الذى ضبطه كان متشدداً وأصر على إجراء اللازم معه، وإلغاء امتحان المادة، وقد توترت اللجنة بسببه، ومع ذلك سمحوا له بمواصلة أداء الامتحان فى باقى المواد، فضبط مرة أخرى يغش فى مادة الفرنساوى، واحتج بأن الذى ضبطه يجامل المراقب الذى ادعى عليه بأنه ذهب إلى دورة المياه، وعاد فوجد ساعته الغالية مفقودة، ولم أكن متابعا للحادثتين اللتين أدتا إلى رسوبه، ووقف امتحانه فى الثانوية العامة لمدة عامين.

وربما كان الأمر بالنسبة له سيكون مخففا لو أننى رسبت فى هذا العام، ولكن نجاحى، وحصولى على مجموع أهلنى للالتحاق بأكثر من كلية، الآداب، التجارة، الحقوق.. جعله فى حالة ضيق وكأنى - الناجح الوحيد هذا العام.. الذى حصل على الثانوية العامة.

فقد قاطعنى : وتعمد أن يتجاهلنى.. وكنت أتودد إليه.. متحاملا على نفسى، فهو الطريق إلى «سهير».. التى كانت تكلمنى فى تليفون المصنع - على أساس أنها شقيقتى، وترتب مواعيد اللقاء.

والمصنع وضع تحت الحراسة، واللجان التى أتت لتقوم بالتقييم، وجدت فؤاد حسين موظفا بالإدارة.. ووجدتنى عاملا فنيا فى قسم التصوير، وطالما أننى لم أعين بالمؤهل الفنى، فأنا عامل حرفى مثل أى عامل عادى فى المصنع.

اللجان ثبتت الأحوال كما هى، فى الوقت الذى قررت فيه أن

أتقدم بطلب مقرونا بشهادة الثانوية العامة لنقلى إلى عمل كتابى بالإدارة.

كان فؤاد حسين.. هو الذى يحاربنى ويقف لى بالمرصاد..

أنا الذى صرت طالبا بكلية الحقوق.. ونجحت ونقلت من الصف الأول للثانى، كنت بالنسبة لمن يشغلون الوظائف الإدارية بالصلاحية، أقل منهم شأنا، وغير جدير بهذه الوظائف التى صار لها شأن فى ظل «الحكومة» التى هيمنت على معظم الشركات والمصانع.

وصاحب ذلك ظهور جحافل من الموظفين، فى الإدارات التى كانت تسير بعدد قليل من الموظفين، صارت مزدحمة بالنقل والتعيين والوساطات.. مزدحمة بأصحاب الياقات البيضاء، وأربطة العنق المتنوعة، ومن يريد وظيفة – عليه أن يتقدم لها عن طريق المسابقات التى سيكون معظمها صوريا، لتثبيت وتعيين المحاسيب ..!

وكان لفؤاد .. تلك الوسطات، فهو ووعائلته يهتمون بهذه العلاقات التى افتقدها...!

* * *

والعمل فى قسم الفوتوليتو.. صار عذابا إذ أن جابر الخروف.. هو الذى أوكل له عمل الزنكات، أى أنه صار أسطى القسم والاحتياطى لبندليس، هكذا أراد الخواجة تودرى أن يخلص ثأثرا قديما من بندليس لا ندرى أسبابه الخفية، وجابر الخروف، لم يكن خروفا.. كان واعيا لما يدور حوله ومتناوما، وكان يلقط سر الصنعة مرحلة بعد مرحلة، منى أو من بندليس الذى يتشكك فى قدراته وفهمه المحدود، وكان الخواجة تودرى قد استدعانى مرتين، وفى المرتين

كان يحثنى أن ألقط الصنعة من بندليس حتى يكون لى شأن، وكنت أدعى بأننى لم أتقن طبع الزنكات وإعدادها، وأن الخواجة بندليس يحتفظ لنفسه بمرحلة مهمة، هى مرحلة التثبيت وعمل رتوش الأفلام.

وفيما يبدو أن تودرى لم يكن يعمل على جبهة واحدة، كان يعد جابر الخروف - حتى وهو فى أثماله وغبائه الظاهرى - ولعل جابر قد قبل الدور وصار يستعد له، أن يكون بديلا لبندليس.

بندليس لم يكن له أفضال على جابر، ولعل جهل جابر جعله لا يقرأ العواقب التى أقرأ أنا فيها وأردع نفسى، والعمل فى القسم ليس اختراعا وكشفا يوميا، إنها مراحل، إذا ما تعلمت كيف تقوم بها، فإن كل مرحلة تسهل المرحلة التى تتلوها..

والعمال بالمصنع - لا يدرون شيئا عن عالم الخواجات خارج المصنع، وهم يلتقون فى سهراتهم، وفى أماكن محددة فى المدينة، فقد تقوم بينهم المنافسات، على ترابيزة قمار، أو من أجل مغامرة عاطفية، وفيما يبدو.. كان بندليس لا يعطى الخواجة تودرى، وهو من نفس جاليته، قيمته خارج المصنع.. فحفظها له، واستمر يترصده، حتى أجلسه على خازوق.. يرعاه فى عنبر الفوتوليتو، ويعتقد أنه حتى لو اشتغل أمامه، كاشفا كل أسراره فلن يفهمها، وجهله لن يساعده على اتقانها.

والمفاجأة.. لا تكون مفاجأة.. إلا إذا كانت ليست فى حسبان أحد.

المفاجأة التى زلزلت بندليس، وزلزلتنى، وكانت فى كشف جابر إسماعيل.. عن مواهبة الخفية.

التى جعلت بندليس، يتكلم كثيرا عن حركة تأميم قناة السويس وكيف أن المرشدين اليونانيين ساعدوا المصريين فى إدارة القنال وكيف لقط المصريون الصنعة فى وقت قياسى، كما فعل جابر إسماعيل، ولم يذكر بندليس اسم جابر مقرونا بخروف.. قلت :

– تقصد جابر خروف ؟

قال وهو لا يتصنع سمات الجد : أقصد جابر إسماعيل.

الذى أكد لبندليس.. كم هو «ساعات» يكون مغفلا كبيرا!

* * *

«الشمطة» التى قامت بين بندليس والكومندا تودرى، كانت بسبب كرتونة بها ست علب بسكويت، وكل علبة تحتوى على أربعة وعشرين قطعة، مثل هذه الكرتونة يأتى بها العمال إلى أقسامهم ويأكلون منها حتى يأتوا عليها، لكن لا يسمح لأحد أن يأخذ معه «فتفوتة» خارج باب المصنع، وإلا عرض نفسه للتحقيق والمساءلة، والعقاب الذى يصل عادة إلى إنهاء خدمته، وإذا لم يبادر ويستقيل يتم تحويله إلى قسم البوليس، ومنه إلى النيابة – فتكون قضية.. وسجن وبعدها يفصل الجانى من العمل، والخفراء على الأبواب يقومون بتفتيش العمال تفتيشاً دقيقاً بتعليمات مشددة من أصحاب المال والمديرين الكبار، بل إن الخفراء أنفسهم وضعوا تحت الملاحظة الدقيقة حتى لا يتواطأ أحدهم، أما الأسطوات الكبار، فيحصلون على توقيع المدير فى مصنع الحلويات أو المدير فى المطبعة، على غلاف «العلبة» المسموح بخروجها، وذلك يعتبر بمثابة تصريح لا يتكرر خلال شهر – وإلا دفع قيمة الفاتورة، أما من يضبط ومعه شىء بدون «تصريح

وتوقيع» – فيصادر مع عمل محضر إثبات حالة وتحقيق.

من أجل علبة حلويات لا يزيد ثمنها عن ثلاثة جنيهات، وعلى ضوء المتبع، الخواجة بندليس طلب من الخواجة تودرى السماح له بكرتونة بسكويت بالشيكولاتة ليقدمها هدية لأحد معارفه، ولكن تودرى تأخر فى الاستجابة، وبندليس غضب، ومع ذلك ذهب إلى فرع البيع واستخرج فاتورة بالعلبة ودفع ثمنها مقدما ولما تسلم العلبة وجد على غلافها شبه توقيع، فتوجه بالكارتونة إلى الباب ليخرج بها على أساس أن تودرى صرح بها، لكن البواب الذى كان قد أوصوه بضبط العلبة واستدعاء من يقوم بعمل إثبات الحالة، كان فى حالة ضيق من استخدامه فى خلافات بين الخواجات، قام بإخطار بندليس بالأمر فى اختصار، فأبلغه بندليس بأن يقوم بعمل اللازم ولا يتحرج، وتعمد بندليس أن يكبر الموضوع ليكشف سخف تودرى أمام العاملين، وقد أظهر الفاتورة، فتوقف التحقيق، هنا ثار بندليس وماج وخرج من المصنع غاضبا، مصرا على أن يحصل على إجازة يريح فيها أعصابه، كان يعلم بأن العمل فى حاجة شديدة له، وأنه بذلك سيضع تودرى فى «خانة اليك» على حد قوله، لكن ما أدهشه أن تودرى يوافق له على أسبوع إجازة، بينما كنت أنا فى إجازة الامتحان، ويطلب منه أن يظل عنبر الفوتوليتو مفتوحا، ولا يغلق ما دام جابر موجودا .. لعب الفأر فى عب بندليس.. ومع ذلك لم يتصور أن الذى سيقوم بكل عمل القسم.. هو جابر الخروف.. فمنذ اليوم الثالث فى إجازته، وصله الخبر وهو فى المقهى بالإبراهيمية.. يحتسى فنجان القهوة ، بأن جابر.. يدير قسم الفوتوليتو بمهارة،

أذهلت الجميع، وعلى ضوء ذلك، تم تثبيت جابر إسماعيل، مساعد أول لرئيس قسم التصوير و«عادل مرعى» مساعد ثان، طبقا لتوجيهات الكومندا تودرى، وذلك ما تم التصديق عليه من لجان تقييم المصنع.

أما ما خفف وطأة المفاجأة على بندليس، أن «الحكومة» أعلنت فى قراراتها، عدم إنهاء خدمة العاملين بدون أسباب موضوعية، ووقف الفصل التعسفى.

كان بندليس يحتفظ بسر الصنعة، حتى لا يتم الاستغناء عن خدماته، ومشكلته تم حلها فى إطار «القوانين التى راعت مصالح العمال ودفعتهم لتحصيل الخبرات لتطوير انتاجيتهم».

وجابر إسماعيل، صار هو الذى يقوم بعمل الزنكات تحت إشراف نظرى من بندليس، وتفرغت أنا لمذاكرة دروسى الجامعية.

والقراءة فى الكتب الثقيلة الكبيرة التى تعدنى كمحام.. والمطالبة بنقلى إلى وظيفة، وعندما تقرر إسناد أمانة المخازن لى، - فيما يبدو كان هذا القرار استجابة للشكاوى التى دأبت على إرسالها إلى المستويات الأعلى - فقد جاء لى فؤاد ليخبرنى بأنه بذل المستحيل حتى استقر الرأى «علىّ» ويطلب منى - فى المقابل - أن تعود صداقتنا كما كانت، وهو الذى كان على وشك إنهاء عقوبة وقفه سنتين من امتحان الثانوية العامة، ويرغب فى معاونتى.

لم أمانع فى عقد هذا الاتفاق، الذى سيمنحنى فرصة «المعسكر» فى بيته، واللقاء بسهير.. وهى فى حالتها الطبيعية.

كانت قد أنهت دراستها وحصلت على الدبلوم الفنى الثانوى -

قسم اللاسلكي - وكان أمامها اختيارات أن تعمل فى الشركة المصرية للمعدات الكهربائية «فيليبس» - أو تعمل فى «الإذاعة المصرية بماسبيرو».. بالأقسام الفنية والهندسية، ودون أن تعرض علىّ الأمر.. اختارت القاهرة.

وكان عليها أن تنتقل للإقامة عند عمتها فى العجوزة.

وفؤاد تعمد أن يحكى لى بالتفصيل - عن عمتها الحكيمة.. وزوجها مهندس الرى.. وأولادهما الثلاثة..اثنين منهما شابين ناجحين يبحث كل منهما عن عروس مناسبة..!

وفى اللقاء الذى تم قبيل سفرها، وكان سريعا وخاطفا، حاولت أن تصور لى الأمر بأنه فى مصلحتنا، فقد رفضت من يأتى من طرف أهل أمها، ووالدها لا يلح كثيرا على زواجها من أولاد أخته.

وكلما مرت بنا الأيام، تعلقنا أنا وهى اتفقنا على أن انتهى من الدراسة الجامعية، وأتقدم لخطبتها، وأنا أحمل فى جيبى كرنيه نقابة المحامين.

١١

□ « آآخ يا عادل.. لو يتزوج جليلة من بندليس بابا إستاثيغو.. كان ييجى مبسوط تمام، بندليس وأخذ فيزيكى، ييجى على طول واخد ميتافيزيكى، ويدخل فى الدين بتا ع المسلمين، ويعمل وصلة مع رابونا بتا ع كل الدنيا..».

أقول له : قصدك .. تصلى.

يقول : إيه.. تمام.. أصلى، خمسة مرة فى اليوم، مائة وخمسين مرة فى الشهر، ألف وثمانمائة مرة فى السنة.. أنا من ناخيتى أصلى دبل، أصلى ثلاثة ألف وستمائة مرة، وييجى مبسوط..».

أسأله : بتحبها يا مسيو بندليس ؟

يقول : بندليس بيموت فى كليلة.

ويملأ صدره بالهواء ثم ينفث الهواء ويعود إلى نحافته وهزاله ويقول :

- أنا عملت معاه المستحيل، كليلة لا تدفع من تحت الحساب أى خاجة، إذا قربت منه يقول ، فى سنة الله والرسول، أنا من ناخيتى مفيس مانع، بس إزاى، فيه حاجات كتير متلخبط عند بندليس ، بوسة واحد ضرورى، علشان يفك الاشتباك».

وتوقعت أن يتزوج بندليس بجليلة معشوقته التى تملأ عليه حياته،

والتى يصارحنى – بلا مواربة – بعشقه لها.. والتى هى حريصة على أن لا تدفع مقدما.. فهو الذى كان يخاطبنى محتجا، كيف يسمح للمسلمين بالزواج من أهل الكتاب، ولا يسمح لأهل الكتاب بالزواج من المسلمات إلا إذا أعلنوا إسلامهم..؟!

وبينت له، بأن الإسلام يقر بالأديان التى أتت قبله، بل أنه يعتبر الإيمان بها جزءً من الإيمان بالدين الاسلامى، وأنه دين جاء للعالمين.. و..

لم يكن الخواجة بندليس يريد منى الإبحار به بعيدا عن مشكلته مع جليلة، ومع ذلك، سألنى :

– ماذا لو تكلم لسانى بما ليس فى قلبى؟

قلت :

– الذين يسمعونك.. ليس لهم إلا ما يقوله لسانك، أما قلبك فهو متروك لعلام الغيوب.

ابتسم فى وجهى ، ثم سألنى إذا كانوا فى الجامعة يعلموننا فقه الدين؟!

قلت له : أننى أتعلم فقه الدين مما أسمعه فى بيتى.. أو من الراديو، أو من أئمة المساجد، وليس فى الإسلام كهنة.. كل مسلم إمام لنفسه.

اندهش وقال : يا سلام ؟!

ومع أننا انتقلنا إلى مواضيع أخرى.. بعيدا عما بدأ به.. فقد فكرت بينى وبين نفسى، بأن بندليس مشغول بجليلة، ولعله يفكر فى الزواج منها بلسانه.. وليس بقلبه.

وهو الذى وجدها مصرة على موقفها، لا تريد أن تصل معه إلى الحلول الوسط التى يقترحها.. وهو يدعم مقترحاته، بالشقة ذات الايجار الهزيل، والأثاثات التى تضمها، ومعاشه الذى بدأت الحكومة فى إعداده، وفيما يبدو.. انتصر الحب على كل العوائق.. سلم بندليس لجليلة بأن يعلن إسلامه – ويتسمى باسم جديد «جلال بندليه» وهو الاسم الذى اختارته له جليلة.. والتى احتفظت بعصمتها فى يدها.. والمهر المدفوع، أثاث الشقة فى قائمة لم تغفل شيئا، ومؤخر الصداق «عشرة آلاف جنيه».

وتم الزفاف فى بوالينو، حضرته مع الخاصة من أصحابه، وجميعنا كنا نناديه كما تعودنا ، خواجة بندليس، فيصحح لنا الاسم «اسمى جلال بندليه.. بندليس خلاص.. راخ».

وإذا ما عاد جلال بندليه من شهر العسل فى مرسى مطروح، رأيناه قد استعاد شبابه وحيويته، واذا تكلم، بدأ الكلام «باسم الله»، وإذا تحير فى فهم مشكلة.. قال «سبحان الله». حتى يتذكر، ويحاول باستماتة أن لا يقول الحاء خاءاً.. ولكنه يفشل دائماً.

والشخص الوحيد الذى كان غاضبا من تصرفات بندليس «الصبيانية» كان – الخواجة تودرى، الذى أشاع بأن بندليس – كومنستى – ملحد، وكافر، ولا يعرف أى إله.. وزواجه من سيدة مسلمة جريمة.. ولم يكن أحد يعلق ، فالجميع فى المصنع كانوا يعرفون الخلافات التى بينهما، والمسلمين بالمصنع عدد كبير منهم لا يصلى ولا يصوم وهم مسلمون – كما جلال بندليه – الذى يحاول بقدر ما يستطيع ، والناس يرحبون بكل من يدخل فى دين الإسلام،

واعتبروا الخواجة تودرى الخبيث «متزمتا»..

فكان الجميع يدافعون عن «بندليه» وعن الأعمال التى بالنيات، وعن الله الذى هو رب قلوب، وعن الرجل الذى يقدم الخير دائما، وليس كالخواجة تودرى - الذى كان يدير المصنع لصالح اليهود فترة، على أساس أنهم عائدون فى القريب العاجل، وعندما لم يعودوا.. اعتبر نفسه صاحب المصنع.. والأسطوات وأتباعهم جربوا منه.. سياسة «فرق تسد» التى تعلمها من الاستعمار الإنجليزى - والذى صنع حدودا داخلية لكل فئة، حتى لا يتم الاتحاد بينهم.

* * *

وعام مر على جلال بندليه.. وإذا بالمفاجأة السعيدة تحدث وتأتى له جليلة .. بابنه.. أحمد بندليه.

وزع على كافة العاملين الشربات والمرطبات.. وأقام حفلة بالنادى الجديد الذى افتتحه رئيس مجلس الإدارة.. ليزاول فيه العمال الأنشطة الرياضية والاجتماعية.. والفرقة الموسيقية الغنائية التى تشكلت من شباب وشابات الشركة.. قامت بإحياء الحفل السعيد. على شرف أحمد بندليه، فغنى العمال، أغانى محمد طه، ومحمد رشدى، وغنت العاملات أغانى صباح وفايزة أحمد، وسوق على مهلك سوق لشادية.. ورقصت واحدة منهن - فشر - سامية جمال..!

ولما يتمالك الخواجة بندليه نفسه فقد قام ورقص رقصة قريبة من الدبكة السورية.. وتقدم إلى الميكرفون وأخذ يغنى أغانى يونانية.. شجية.. والدموع تسح من عينيه، يتمايل فاردا ذراعيه. وساقيه يضرب بهما الهواء على الرتم الذى صنعه بفمه، وحاول العازفون

ملاحقته وترجمته، وكانت جليلة تجلس فى المقدمة وعلى صدرها ابنها الطفل وخضع بندليه لعادة من عادات العمال، نقطوها بما يستطيعون تقديمه - وهو ما يفعلونه مع زملائهم - على أن يتم تسجيل «النقطة» فى (كشف) وترد فى مناسباتها السعيدة أو غير السعيدة.

انهالت - النقطة على أحمد بندليه - إذ كان محظوظا، العمال صرفوا «الأرباح» التى قررتها الدولة لأول مرة، بما يعنى من - جاور السعيد يسعد !

كنا نمر بربيع الثورة، كل شيء حولنا يدعونا للزهو.. والفخار، ومبكرا، شعرت بأن الخفافيش تتجمع فى الظلام، والثعابين تنتظر أن تهدأ الحركة، والذئاب على مشارف المدينة تنتظر غفلة الحراس، فقد حصلت على ليسانس الحقوق بتقدير جيد، وإذا ما فكرت فى الالتحاق بسلك النيابة، نصحنى الرجل الكبير، أن لا أبدد وقتى، إذ أن رجل النيابة له شروط لا تنطبق على أمثالى، لابد وأن يكون من عائلة ميسورة الحال، وبين أفراد عائلته أفراد يتمتعون بالحيثية الاجتماعية وبالجاه والنفوذ - خيل لى بأن هذا الرجل الكبير قد أسقط من حسابه ثورة يوليو، والتطورات الخطيرة التى جعلت من الانقلاب.. ثورة عربية، تلفت الأنظار بشدة إلى مصر.. والعرب اعتقدت بأن الرجل - لكبر سنه - لا يزال يعيش فى العصر الملكى.

وكان لابد وأن أجرب بنفسى ، أنا ابن ثورة يوليو، الثورة وما جاءت به كان من أجلى أنا بالذات.. أنا الذى أقوم بالأدوار المختلفة وأحقق فيها تمايزا.. أنا الشعب.. الذى يتغنون به فى خطبهم

وبرلماناتهم ومجالس الثورة - فيكتسبون منى الشرعية، وأمامهم يتنحى البكوات والباشوات، الذين ورثوا مصر من جدودهم الغازين والفاتحين، ولكن طلبى تعثر بالفعل، والمسألة صارت واضحة، بعد أن حل الثائرون محل الميسورين فى قصورهم، باتوا يخشون - «الأغلبية الفقيرة» - أن تزحف وتغمرهم بفقرها وجهلها... فتم بناء الحواجز، تحتمى خلفها «الطبقة الجديدة»، تحتفظ لأولادها بالتمايز، والوظائف والمكانة، وإذا ما ارتفعت الحواجز.. تفكك الباشا إلى عشرات الباشوات.. وتجزأ البيك إلى آلاف البكوات.

باشاوات وباكوات جدد.. من مادة لامعة صفراء غير أصيلة.. مادة خادعة.. من ذهب قشرة لا عيار له..!

وانكمشت آمالى .. أتعلل بأنه إذا ما فرغ من قضاياه الكبرى، سوف يلتفت إلى، يكفينى منه الوعد، يكفينى منه إعلانه بأنه فى صفى مهموم بهمومى.. أنه تراث سميك من المظالم لابد وأن أمنحه الفرصة المناسبة لتبريره !

ولكنه كان وحده يتعلل بأن معه «الشعب».

ومن يكون وحده. ومعه الشعب، فلا أحد معه..!!

فالشعب ليس عصابة يمكن تحريكها، والشعب ليس حزبا له أهداف محددة يسعى إليها، والشعب، عبارة تثلج الصدر.. ولكنها لا تشفى الجراح، الشعب قد يحتفظ لك بذكرى طيبة، لكنه جماعة ضخمة عفوية..

من يخططون، يلعبون بعفويته، كمن يلاعبون طفلا، يجعلونه يبكى، ويضحك فى وقت واحد!

* * *

انحصرت آمالى فى وظيفة ملائمة، وشركتنا صارت جزءاً من المؤسسة الغذائية، وقد تحددت الإدارات وتضخمت، فما كان يقوم به عدد قليل من الموظفين، صارت تقوم به عدة إدارات، معظم الكبار فيها الذين يتقاضون المرتبات الضخمة.. لا يفعلون شيئا إلا أن يوقعوا على أوراق، أو يعرقلوها.. ثم يسعوا إلى الراحة بعد هذا المجهود العظيم، والغريب أن طلبى قوبل بالرفض، وأحد الخبثاء.. أشاع عنى بأنى أحد المناهضين للثورة، ومن المواطنين الحمر، فصرت كما الهنود الحمر، ومع أنه فى ذلك الوقت كان الدعم العسكرى والاقتصادى والسياسى يأتى إلينا من الشرق، فقد كان السائد أن الذى يعترف بهذا الجميل يتهم بأنه يحمل الأفكار المستوردة الضالة التى ستدمر المجتمع المسالم، أما الذى يتشبه بالغرب، ويلقى أمنياته على أيام وليالى لندن العظيمة، ويتهيأ لاستقبال الكاوبوى مرتديا الجينز.. وفى خصره المسدسين الكبيرين، فذلك لا يحمل مثلى الأفكار المستوردة، وينظر إليه على أنه جزء من نسيجنا الدائم ، وأبلغونى.. إذا أردت وظيفة بمؤهلى.. أن أتقدم إلى المسابقات والتى تعقد، إذا ما تم إخلاء درجة وظيفية بمجموعة الوظائف المتخصصة.

وكنت لا أستطيع أن أصدق بأن فؤاد حسين - الذى صار له شأن فى الشركة - والذى حصل على شهادة الثانوية العامة بصعوبة، وأشاع بأنه انتسب إلى كلية التجارة.. هو الذى يقف وراء الإشاعات، التى يجب أن يصدقوها، والبعض يعرف أنه كان قريب

الصلة بى.. ويعرف عنى الكثير.

ولعله كان - والقطيعة وقعت بيننا - يؤكد لمن حوله، بأن من أسباب قطيعته لى، أفكارى المستوردة!

لم يذكر الأسباب الحقيقية، لعله كان يرى فى انتسابى لهم عارا.

* * *

عندما كشفت سهير لأمها.. رغبتى فى الزواج منها، وأنا أستعد لامتحان الليسانس، الأم عرضت الأمر على الأب فإذا باجتماع عائلى ينعقد.. وفيه ، يفاجىء الأب والأم بأن من يقف ضدى ويغرف من تراب الأرض ويضعه على رأسى، هو فؤاد ، ذهلت سهير وتصدت له، وصرخت فى وجهه :

- ماذا كان سيفعل لك فى الثانوية العامة، هل كنت تريد أن يؤدى الامتحان ، مكانك.. يا غشاش..

انتفض ، ولطمها على وجهها، ثار والده وضربه بكف يده.. وصرخت الأم.. والطفلين، حتى خشيا أن يطرق الجيران باب شقتهم للاستفسار عما يحدث من هياج وصراخ.

وسألتنى سهير : «يعنى إيه شيوعى يا عادل..؟!».

وعندما فسرت لها الأمر.. كانت تود أن تجد من ينقل هذا التفسير لوالدها، الذى يصر بأن لا يسمع شيئا عنى مطلقا..

* * *

أخذ والدى ينصحنى بعدم التدخين وهو يسعل بفعل الدخان الذى يتعاطاه منذ كان صبيا، وكان يؤكد لى بأن الدخان هو السبب الرئيسى لمتاعبه مع صدره.. وجدت نفسى أتبع إرشاداته، وأجرب

التدخين لأعرف هل يؤدى بالفعل لمرض الصدر، أم أن تكوين والدى البدنى ضعيف ومناعته ضد نزلات البرد تتهاوى.. أصابنى الدوار عشرات المرات، وأنا أبلتع أنفاس السجائر.. كثيرا ما سعلت ودمعت عيناى، ولكنى لم أكف عن التدخين، إذ أن والدى لم يكف عن الدفع بنصائحه.. وبين أصابعه السيجارة مشتعلة.

لا أدرى لماذا كنت أقف على الطوار المقابل لمن ينصحونى ولا يقدمون لى القدوة.. لأقتدى بها..

حبست نفسى بداخل علبة السجائر، مؤبد - ولما أصابنى الضجر، حاولت الخروج من السجن بنصف المدة ، على أساس حسن السير والسلوك، إذ أننى لم استمر طويلا فى حشو بعضها بالحشيش، ومع ذلك.. فات علىّ الدور.. ولم يفرج عنى.

إلتمست الخروج بمناسبة أعياد الثورة، التى كانت تفرج عن اللصوص والقتلة وأصحاب قضايا الدعارة ابتهاجا بعيد الثورة.. ومع ذلك - ولم يفرج عنى، ظللت محبوسا حبسا انفراديا، كل ما كان متاحا لى أن أنتقل من علبة إلى علبة، ومن صنف إلى صنف.

إذا ما أصابنى الضيق أشعلت حلقى، وإذا ما أصابتنى رعشة أمل واصلت إشعال النار فى صدرى، وإذا ما أصابنى السأم وقد خضت التجربة، وجدت أن والدى، كان يدفع إلىّ بتجربته الثمينة لغلاوتى عنده.. كان الرجل قد انتهى بداخل صنف ردىء.. هنا حدثت الكرشات لصدرى.. حولونى إلى الطبيب المعالج.

أشعل سيجارة من سيجارة، وأخذ يسعل، وينصحنى بأن أكف عن التدخين!

* * *

لم أجد أمامى إلا أن أزاول مهنة المحاماة، وكرنيه النقابة صار فى جيبى، فالتحقت بمكتب الأستاذ زاهر البنا المحامى، وسريعا ما جعلته يثق فى قدراتى ويعتمد علىّ.. فيرتفع مرتبى سرا، دون علم باقى الزملاء..!

١٢

□ صرت أدق على الأبواب الغليظة، الأبواب القوية التى لا تتحطم بالقرع، أعرف من الذى يتحصن خلفها، كثير من الهواجس تخلصت منها تدريجيا، والأمور إذا ما استقامت فى وظيفة لا تمنحك إلا احتياجاتك الضرورية، يتركز البحث عن الغيبوبة، والأمور الخاصة .. صارت خاصة جدا، وانحصرت فى الأنثى التى يجب أن استدفئ بها..

وسهير ابتعدت.. صارت وظيفتها بالقاهرة، وأنا حبيس مدينة الإسكندرية.، أسوارها القديمة أعيد بناؤها، وأبوابها أغلقت بالمزاليج الضخمة فى رعاية حراس شداد.

تليفون مبتور الكلمات، ضعيف الاستقبال، لم يجعلنى أتبين جمال صوتها، كان الصوت يتلون بالتدبير الذى تنتويه :

«مع السلامة يا عادل، أرجو أن يظل ما بيننا سراً وإلى الأبد، أنا حاولت، لكنه المقدر والمقسوم..!

وسألتها : أهو ابن عمتك؟!

قالت : لا .. زميل لى، مهندس بالإذاعة، وابن ناس..!

وجدت نفسى أضحك وأقول : «عندك حق، أنه أفضل من ابن الكلب».

كررت اسمى عدة مرات.. وأغلقت السكة بيننا.

كانت المرآة أمامى فشاهدت نفسى، ضاحك الوجه، لا شىء من الألم يرتسم على الوجه المستطيل، لفت نظرى أن شعرى فى مقدمة الرأس صار خفيفا، أستطيع أن أشاهد جلد رأسى، مشروع صلعة قادمة، قد تحل تماما فى أقل من خمسة أعوام، ووجدت أن هذا وقت كاف ، لمحام أتقن اللعبة.. أن يكون جاهزا بعد خمسة أعوام، إذا ما تقابل مع فرصته الغامضة، التى تشاغل ذهنه فتبرق وتختفى كأحلام اليقظة.

الآن علىّ أن أترك ارتيابى فى قدراتى، خلف ظهرى، وأواصل الدق على الأبواب.. لابد وأن وراء أحد الأبواب هناك، تنتظرنى، فرصتى، والذين كانوا لا يريدوننى كثيرون، ومع ذلك كنت أشعر باضطرابهم، خلف أبوابهم الثقيلة، المغلقة بإحكام..

* * *

والمحامى ستكون له صداقاته، يفتح لبعضها الباب، أو يواربه، ينقى من كومة العلاقات ما يتلائم ومزاجه، فإن استشاراته صار لها ثمن، وأصابعه تدربت على دق الطبلة، يستنطقها بالدقات، مبتورة وممطوطة ومدغومة، منفلتة وملمومة، فإذا بالجسد المرغوب فيه، يرقص على الدقات، الدقات ترتطم به فتبعث فيه النشوة، يتمايل ويهتز، يضطرم بقدر تبدل الرتم، حتى ينعكس الوضع، الدقات لا تذهب إلى الجسد الملتهب بالرغبة، إنها تخرج منه ملفوفة على أعناق الشياطين..!

وإذا ما تنوعت الدقات.. تنوعت الدفقات.. من العيون المعصورة

فى كئوس الخمر.

بضع ساعات تقطعها فواصل من المواويل الحزينة، والنكات الفاحشة، ثم يأتى اللقاء فى آخر رمق من الليل.

ما نكاد نفرغ، حتى يتذكر بأن رول المحكمة، يضم قضية مدام «غادة» زوجة المليونير الهارب، والتى تريد فصل ذمتها المالية عن ذمة زوجها المهترئة.. كنت قد شاهدتها مرتين.. المرة الأولى ذابت فى الغضب والثورة على زوجها الذى دفع فى حياتها بأكثر من مفاجأة.. وفى المرة الثانية رأيت أنها تقدم نفسها لى كأنثى وليست كسيدة أعمال.

ومشاغل الأستاذ زاهر - جعلته يقدمنى لها على أننى - العبقرى الوحيد فى مكتبه - والذى يعتمد عليه أكثر من مائة فى المائة.. ولم تكتشف مدام غادة، أن صناعة المحامين.. الكلام.

* * *

عندما صار تفانى شخص واحد، له يدان وقدمان ورأس واحدة لا غير، تستنفر جيوش الدول العظمى الجرارة، اهتمت البيوت العلمية التى تترصد الفرص بانتاج قميص من الصلب الشفيف، يمكن أن يرتديه هؤلاء الأشخاص الفاعلين للاحتماء من الكراهية التى ستتآلف ضدهم الكراهية التى ستكون قاعدتها الحقد والحسد، والقاعدة الكبرى دائما فى حالة من انعدام الوزن، لا تستطيع كشف زيف الاستفتاءات، وإذا كشفتها فليس لديها الدليل.. وإذا أتت بالدليل المنطقى فلن تكون هناك القوة لتوجيهه وإطلاقه نحو الهدف، لذلك كان إنتاج القمصان الصلب التى لا يخترقها الرصاص، لا عن قرب

أو بعد، من أجل هؤلاء العملاء المتميزين، وبكمية محدودة للغاية، وقد أرفقوا بالقمصان الصلب، كتاب الإرشادات التى يجب أن تتبع بدقة، عدم فتح نوافذ السيارات المخصوصة والتى لا يخترق زجاجها الرصاص، وعدم مواجهة الفقراء دون حراسة كثيفة، وأن يكون الوقوف أمام الفقراء دون حراسة كثيفة، وأن يكون الوقوف أمام الفقراء على أبعد مسافة من شعاع الظلم الذى ينغمسون فيه.. وهو شعاع غير مرئى، يفسد خاصية القمصان الصلب، والتوصية بعدم مواجهة المظلومين ونظراتهم المشبعة بالرجاء، ويفضل أن يكون اللقاء عبر الأثير، ومن أماكن غير معلومة، وأن يكون هناك ارتفاع مائل بحدة لا يمكن لفوهات المسدسات من أن تصيب الرأس والصدر بدقة، كما أن الفراغات التى تكون حول «الطاغية» ستكون على شكل مخروطى، لا يستقبل القنابل اليدوية، بل يجعلها تنزلق بعيدا عن المكان المراد.

ولعل القميص الصلب المقاوم للرصاص، كان سلعة رائجة، لقد جعل الطغاة يطمئنون ويخالفون التعليمات الإرشادية، جعلهم يستمتعون بزمنهم ويتخلصون من القلق والانزعاج.

وإذا ما أكل المسكين الطعم، كسمكة ساذجة.

اقتربوا منه كثيرا، حتى تم تصويب البنادق إلى حنجرته وهو يرفع وجهه عاليا.. متباهيا.. فخورا.

وإذا ما تم الضغط على الزناد.. تجمد المشهد على حالة قصوى من الانزعاج الذى يتخلله الدم، والدهشة، فيكاد الناظر إلى المشهد المتجمد، أن يسمع آهات الصدمة المفاجأة.. وكيف بترت بقسوة..!!

* * *

لم أكن ملائكيا على طول الخط ، كان لى شيطانى الخبيث، وقد ابتعدت عن طريق فؤاد حسين، لكن سيارته الفولكس الصغيرة كانت تعثر علىّ وأنا أنتقل من محكمة إلى أخرى.. وكان يعرف أن مكتبى فى المنشية، لكنه لم يزرنى، حتى لا يشاهدنى فى عملى، ويضطر أن يجلس على أحد المقعدين اللذين يقعان أمام مكتبى، وقد خصص لى الأستاذ زاهر غرفة لى وحدى، عندما وجد أن فى امكانى الاعتماد على نفسى، خشى أن أسحب معى جزء من العملاء، رفعنى إلى مرتبة الشريك الأدنى.

كنت أعلم بأننى قائم بداخل فؤاد حسين، وأنه لولا تتبع خطواتى لظل كما هو الصبى الذى يكره الدرس والتحصيل.. ومع أنه لم يتصالح مع القراءة، إلا أن ذاكرته الحديدية كانت تسد النقص الشكلى، فلا أحد من حوله سيجعله يغوص بعيدا.. والسمة الغالبة تلك السطحية، التى يبدو فيها أنه النتوء الوحيد.

فؤاد الذى يتتبع خطواتى، ثم يقف ضد انصهارى فى عائلته، فإن عقدا كثيرة كانت تتحكم فى حياته، أنه لا يريد أن ينصهر فى المبادىء، وهو الذى كان يغنى فى منظمة الشباب، «صورة، صورة، كلنا كده عايزين صورة»، عندما وجدنى قد أخذت اللعب جدا.. والصراع القومى انسكب بعضه على جوانب الجدران، صنف نفسه أمريكانى، من المعجبين بكيندى وانتصاره الساحق على خروشوف فى أزمة خليج الخنازير.. لا يدرى أن أمريكا تعهدت بعدم العدوان على كوبا.. إذا ما تم فك الصواريخ السوفيتية، وكان قد صنفنى –

مادمت ضد الاستعمار والرأسمالية الجشعة - لابد وأن أكون صينيا وسوفيتيا وفيتناميا، وأى شيء ممقوت من الأغنياء وأصحاب التطلعات.

وفى أوج المد الناصرى، كان هناك من يهتمون بتصنيف البشر.. وتمادوا.. حتى تم تصنيف جمال عبد الناصر نفسه - على أنه شيوعى - ما دام يقف ضد الاستعمار، وإسرائيل الأمريكانية، ويساند الدول الفقيرة، وينحاز فى الداخل إلى الطبقة الفقيرة.

«ماذا سيكون .. هل سيكون أمريكانى إمبريالى..؟ عندهم حق!».

* * *

عاد إلىّ فؤاد بتحليلاته العقيمة، وجدت نفسى أضغط وقتى وأعصابى وأتحمله، فقد دبرت له «الخازوق» الذى سيطلع من نافوخه.

أخذت أحدثه عن «خيرات».. زميلته فى الشركة.. دبلوم تجارى، ونشأت فى حوارى القبارى، تمكن شقيقها فى حالة مد وطنى أن يدخل الكلية العسكرية ويتخرج ضابطا.. ولكن خيرات.. إذا ما ارتدت ملابس الرجال، ستكون رجلا دميما.. ومع ذلك فإنها.. تتقصع وتتمايل فى حالة.. تذكر من يراها بالذكور الشواذ.

كان شقيقها قد توسط لها ونقلها من شركة صغيرة عينت بها، ولكنها هناك لم تستر مكانها، فقد أظهرت كثيرا من مواهب الحارة.. التى تتفاعل يوميا بالقبارى، ولعلها حفظت الدرس، فإذا ما انتقلت إلى شركة الحلويات وعملت بالإدارة المالية.. تدق على الآلة الكاتبة.. التزمت بنصائح شقيقها، الذى صور لها بأنها على طبيعتها لن تتزوج مطلقا، ولا حتى من عسكرى المراسلة الذى يخصص له.

إذا ما التقيت بفؤاد.. ذكرت له أن الزواج قسمة ونصيب، وأنني صرفت النظر عن سهير، وخاصة وأنها ابتعدت، فقد أخذت أعدد له مزايا الفتاة التى انتويت الاقتران بها، أثرت خياله، ود أن يعرف من هى، تمنعت قليلا، على أساس أنه مشروعى الخاص، الذى لا يعلم به أحد، «حتى الفتاة التى وقع عليها اختيارى لم تعلم بعد»، وفؤاد له طريقته عندما يكون فى حاجة إلى شىء ، انكسرت بحكم الصداقة والزمالة، وقدمت له اسمها، وبينت له بأن المقصودة، هى «خيرات عبد الغنى» - شقيقة ضابط الجيش «توفيق عبد الغنى» وإذا بفؤاد يندهش ويسأل مستعيدا كل المزايا التى قدمتها عنها.

وإذا ما أكدت له الأمر - يعود يسأل :

- كيف غفلت عن ذلك، وهى تعمل معى فى نفس المبنى؟

لكنه عاد واعترض بأن شكلها «موش ولابد» أبلغته بأن خيرات فيها كافة مزايا الأنثى.. وتجمع بين الثراء والأصل والفصل.. وأنني تحققت بأنها فرصتى المناسبة، وطلبت منه أن يجعل الأمر سرا بيننا، حتى تتم الخطبة، وأخذ يهز رأسه مشدوها، غارقا فى لجة من التفكير.

عندما تركنى كنت واثقا بأنه سوف يحيط خيرات برعايته، وأنه سوف يسارع ليحل مكانى، ليس لأن خيرات كما يشاهدها هو، لكنها، خيرات التى وقع عليها اختيارى أنا، ولابد أن يسبقنى بخطوة قبل أن أفوز بها.. وفى اتصال تليفونى كنت أطلبه حتى يأتى معى لمقابلة شقيقها الضابط، أبلغنى بأن خيرات «بنت ممتازة»، وأنني يجب أن أتحقق من عواطفها - تصنعت الصدمة وسألته .

«إن كان سبقنى وشغل قلبها..؟».

قال فى ثقة «البعيد عن العين بعيد عن القلب يا أستاذ، لقد التقينا على اتفاق بيننا، وتفاهمنا على الزواج، سمارها يجنن، والضب ليس مشكلة، نجاة الصغيرة ضبها سر جمالها».

حاولت أن أحتج بأننى أول من فكر فيها.. ضحك ضحكة الفوز وهو يردد مثل قديم عن الذى سبق فأكل النبق، وقال :

- هارد لك يا أستاذ.. عليك أن تبدى شيئا من الروح الرياضية.

* * *

وحصل فؤاد على «المقلب» عندما جعلته يسارع ويعلن خطبته على خيرات، ثم يعقد القران.. وبدلة الضابط بالدبابير والأزرار الصفراء التى يرتديها شقيقها.. تملأ كامل المشهد وتخفى.. خلفها.. خيرات .. الحقيقية.

* * *

فى حفل الزفاف، شاهدت زميلاتها يتأسون على الشاب الحليوة الذى فازت به خيرات الدميمة، وكان هناك من يرون بأن الحب ليس أعمى فقط ، بل «وأهبل»، وعندما كنت أقدم له التهانى، كان فى عينى فؤاد «شكا، بأننى كنت أنوى الزواج من خيرات.. وأننى دبسته».. اضطررت أن أسلم على خيرات ، وامتدح زوقها ورقتها وأنوثتها، حتى تدخل فؤاد ليوقف تدفقى..

ومع ذلك كنت أشاهد على ملامحه.. حالة عدم الاقتناع بأنه اتخذ طريق الصواب.

وقبل أن يزف مع عروسه خارجين من قاعة الكازينو، كانت مدام «غادة» قد أتت وجلست على مائدتى، ثم صحبتها إلى العروس لتقدم لها هدية.. وسلم عليها فؤاد مبهوتا بجمالها.

قلت له : سيارة مدام غادة المرسيدس ستحملك وعروسك إلى مائدة محجوزة لكما فى فندق..

كان يسألنى بعينيه.. «من هى، تلك التى تقدم لزوجته هدية من الذهب فى علبة قطيفة»، ابتسمت وقلت :

– صديقتى ..

لكن العروس التى أصيبت بحالة من الغيرة على عريسها.

أصرت بأنها «متعبة» ولن تستطيع الوفاء بالدعوة، وأنها «مرهقة جدا»، كانت تريد أن تنفرد بزوجها فى شقتها، وكان جمال «مدام غادة» يطفىء ما حوله.

قالت مدام غادة : عندها حق..

وللوفاء بالمائدة المحجوزة، ذهبت معها وتعشينا، وتحدثنا حول بعض الاجراءات فى القضية وتفريعاتها..

قطعت كلامى قائلة :

– إيه ، صاحبك غشيم لهذه الدرجة.. يتزوج من رجل.. هو أجمل منها بمراحل..؟

ضحكت وقلت : خلينا فى قضيتنا يا مدام..

احتجت للمرة الخامسة.. على كلمة «مدام»، قائلة :

– متى .. نصير أصحاب وتبطل كلمة «مدام»..؟

– لن نصير أصحابا إلا إذا كنا حبايب!

قالت بدون تفكير :

– وما المانع.. أنا من ناحيتى استطلفتك .

أطرقت وقلت : الاستلطاف درجة ثانية.. أريد درجة أعلى منه حتى أتجرأ وأتقدم بطلبى للمحكمة.

واعتراها خجل بنت عذراء لم تدخل دنيا..

* * *

فؤاد حسين، صار عضوا فى مجلس إدارة الشركة بالانتخاب، ثم تمت ترقيته إلى مدير عام.. وصار يسعى لمنصب رئيس قطاع.. وكنت أعتقد بأن أمثال فؤاد حسين، الذين يجعلون من الحبة قبة، سيكونون نكبة على شركات القطاع العام.

رغم إيمانى بأن القطاع العام، هو الحل الاقتصادى – الوحيد – للدول النامية.. لتعبر إلى التنمية الحقيقية.. بعيدا عن دعايات رجال الأعمال وتهويلاتهم من أجل القروض والتمسك بشعارهم الخالد .

«من ذقنه وافتله».

* * *

بينما كنت فى المكتب مساء، وجدت الكاتب يدخل علىّ فؤاد حسين ومعه والده وزوجته خيرات، التى كانت حاملا فى ابنه الثانى، جاء لمقابلة الأستاذ زاهر البنا، صاحب المكتب، لم يكن يعلم بأننى صرت أقوم بأعمال المكتب، والأستاذ البنا.. سافر للعلاج بالخارج، وفى ظنى أنه لو كان يعلم ، ما كان قد أتى إلى مكتب، ليعرض قضيته.

« اكتشفوا بأن شهادة بكالوريوس التجارة.. التى يضعها فؤاد

حسين فى ملف خدمته.. مزورة.. فأوقفوه عن العمل..».

ولعل الصراع على منصب رئيس القطاع، كان من أسباب البحث خلفه والإيقاع به، وقد صار بينه وبين الشركة قضية.

والده تعرف عليّ، ووجد ابنه مترددا فى عرض قضيته، ومع تلقائية الزوجة التى كانت كمن تمضى حياتها على شاطىء البحر منقوعة فى الماء المالح.. محروقة بالشمس - فقد فتحوا ما كان يحتبسه فؤاد، اضطر أن ينكس رأسه ويتحدث، سألته سؤالا محدداً:

- كن أميناً معى يا فؤاد، بحق العيش والملح، صارحنى.. هل الشهادة مزورة بالفعل..؟!

وقف وجلس، وارتبك.. فقال والده :

- الشركة أثبتت أن الشهادة التى بالملف ليس لها أصل بالكلية.

كان الرجل يواجه الكارثة.. كمن اعتاد على الكوارث، فى رباطة جأش، بينما فؤاد كان منهارا.. ومهدلا.

وكان الرجل يتأملنى .. وقد علق بصره بى.. عندما كنت أحرك يدى اليسرى كان يتطلع إلى خاتم الزواج.

« أنا الذى رفضونى فى اجتماعهم العائلى، والذى رفضنى مزور.. حياته الوظيفية التى بناها بالعلاقات والوسطات، كان يؤسسها على الغش..».

عندما طال الصمت فى المكتب.. ناديت على الساعى، بأن يأتى بالشاى والقهوة، وقدمت علبة سجائرى للعجوز الذى كان يمكن أن يكون حماى.. وللرجل الذى كان يمكن أن يكون من أعز أصدقائى.

فإذا ما انتهى فراش المكتب من تقديم المشروبات سألت فؤاد :

- وشهادة الثانوية العامة.. يا فؤاد..؟

اندفع قائلا :

- ابدا .. لقد تحققوا منها، وجدوا أنها صحيحة..!

تناولت من المكتبة خلفى كتابا ضخما فى القانون.. وبينما أقلب صفحاته .. قلت :

- إذا تم تدريجك الوظيفى بالثانوية العامة.. هل تخسر كثيرا؟

أطرق فؤاد.. وزفرت زوجته وهى تتوجع.. وقال والده فى ثبات:

- من المؤكد سيخسر.. نحن يا ابنى، أقصد يا أستاذ عادل.. نأتى إليك بقضية خاسرة، قضية نعرف مقدما أنها «زفت وقطران»، هل تقبلها؟!

* * *

إذا ما أوشك الليل المدلهم أن ينقض علينا، ليفصل بين التحامنا الحياتى، بادرت وأشعلت «ضده» شمعة.. ليتوقف عند الباب.. وإذا ما أمكننى الاستمرار فى إضاءة الشموع، قد يأتى الفجر.. ويبدد الليل إلى حين.

تحسست قلبى.. لم أجد به الشماتة، وجدته مفعما بالألم، كان لابد وأن أبدد الألم.. ببعض الآمال.. مهما كانت النتائج.. لذا شرعت كالطبيب ، أجعل الحالة التى أمامى تتمسك بالحياة.. أولا.. وقبل كل شىء.. ثم نواصل البحث عن العلاج..!؟

سيدى بشر / الإسكندرية

الكاتب

* عبد الفتاح مرسى
* ليسانس آداب (تاريخ) - جامعة الإسكندرية - دبلوم عام من كلية التربية - جامعة الإسكندرية.
* عضو عامل باتحاد كتاب مصر (١٣٦٦) ت: ٥٤٨٨١٥٢ (الاسكندرية)

كتب صدرت للمؤلف:

- رواية «على حافة النهار» - سنة ١٩٩٣ - الثقافة الجديدة.
- رواية «الدحديرة» - سنة ١٩٩٤ - على نفقة المؤلف.
- رواية «المحسوس والملموس» - سنة ١٩٩٥ - المجلس الأعلى للثقافة.
- رواية «المقطوع والموصول» - سنة ١٩٩٦ - كتاب فاروس.
- مجموعة قصص «شهوة الموقف المتحرك» - سنة ١٩٩٧ - دار الوفاء لدنيا الطباعة.
- دراسة «الفن فى موكب الوعى» - سنة ١٩٩٨ - دار الوفاء لدنيا الطباعة.
- رواية «المسخوط من سيرة على بلوط» - سنة ١٩٩٨ - دار الوفاء لدنيا الطباعة.
- رواية «الليل وجبروته» - سنة ١٩٩٩ - دار الوفاء لدنيا الطباعة.
- رواية «الابحار فى الرمل» - سنة ٢٠٠٠ - دار الوفاء لدنيا الطباعة.
- مجموعة قصص «قبلات محطات السفر» إصدارات هيئة الفنون والآداب - سنة ٢٠٠١.

- مجموعة قصص - العكاكيز - إصدارات - دفقات للنشر والتوزيع المركز المصرى بالإسكندرية - ٢٠٠٢.
- رواية - ففدا ناكل التفاح - هيئة الكتاب - كتابات جديدة - ٢٠٠٢.

* فاز بالمركز الأول فى مسابقة المجلس الأعلي للشباب والرياضة فى مارثون القصة القصيرة على مستوى الجمهورية عام ١٩٩٦/١٩٩٧.
* فاز بثلاث مسابقات فى القصة القصيرة على مستوى الإسكندرية وقطاع غرب الدلتا خلال عامى ٩٨/١٩٩٩.
* فاز بالمركز الثانى فى مسابقة الرواية التى ينظمها نادى القصة بالقاهرة لعام ٢٠٠٠/٢٠٠١- ففدا ناكل التفاح - رواية.
* فاز بالمركز الثانى بقصته - صرصار جاف يتحرك بنادى القصة بالقاهرة لعام ٢٠٠١/٢٠٠٢.
* فاز بالمركز الأول فى مسابقة الرواية التى ينظمها نادى القصة بالقاهرة لعام ٢٠٠١/٢٠٠٢- أكثر من عمر - رواية .

صدر من هذه السلسلة

١٦ - البنات - هدى جاد .
١٧ - عاد الأسد .. أسد نبيلا - عبد المنعم السلاب .
١٨ - عراف السيدة الأولى - محمد القصبى .
١٩ - حكايات عن العربيد - صلاح عبد السيد .
٢٠ - السلمانية - صلاح معاطى .
٢١ - الفائزون أول القرن الحادى والعشرين - الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة.
٢٢ - صبحى الجيار والمحنة المضيئة - مصطفى عبد الوهاب.
٢٣ - الرغبة الوحيدة - صوفى عبد الله.
٢٤ - الغزال فى المصيدة - محمود البدوى.
٢٥ - خراط البنات - صفوت عبد المجيد
٢٦ - القصة القصيرة عند ثروت أباظة
وقضايا المجتمع - حسين عيد
٢٧ - حوار مع جنية - عصام الصاوى
٢٨ - ليلة موت - عبد الحميد الفداوى
٢٩ - حبيب حبيبى - درويش الزفتاوى
٣٠ - لقاء غير متوقع - محمد صفوت
٣١ - التوأم وقصص أخرى - الفائزون فى مسابقة نادى القصة للقصة القصيرة
٣٢ - أكثر من عمر - عبد الفتاح مرسى

الإصدار القادم

من حياة الحياة - رستم كيلانى

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)